فَكُّ القَيْدِ

شرح مقدمة ابن أبي زيد

للإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني، المالكي

(٣١٠-٣٨٦هـ) رحمه الله

الشرح للشيخ الدكتور

وليد بن إدريس المنيسي

الطبعة الأولى ١٤٤٠ هـ

(دار الجامعة الإسلامية بمنيسوتا للنشر)

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الجامعة الإسلامية بمنيسوتا

للنشر والتوزيع

Park Ave S 8201

Bloomington, MN 55420

U.S.A

إسناد الشارح إلى مقدمة ابن أبي زيد

قال وليد بن إدريس المنيسي: أروي مقدمة ابن أبي زيد، عن الشيخ محمد بن عبد الرزاق الخطيب الصالحي، عن أبي النصر الخطيب، عن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الكزبري، عن أحمد بن عبيد العطار عن صالح الجينيني، عن أبي المواهب محمد بن عبد الباقي البعلي، عن نجم الدين الغزي، عن بدر الدين الغزي، عن أبي الفتح المزي، عن عائشة بنت عبد الهادي، عن الحجار، عن جعفر الهمداني، عن أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي، عن عبد الرحمن بن محمد بن عتاب، عن مكي بن أبي طالب القيسي، عن الإمام أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني.

رحمهم الله أجمعين وألحقنا بهم في الصالحين.

ترجمة الإمام العلامة ابن أبي زيد القيرواني

حاز رئاسة الدين والدنيا، ورُحل إليه من الأقطار

القاضي عياض

هو الإمام، العلامة، القدوة، الفقيه، عالم أهل المغرب، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني، المالكي، ويقال له: مالك الصغير.

وُلِد سنة (٣١٠) أو (٣١٦)، و توفي (٣٨٦)، وقيل: (٣٨٩).

ولد وعاش ومات بالقيروان بتونس.

إمام المالكية في وقته وقدوتهم، وكان يُلَقَّب بمالك الصغير، جمع مذهب مالك وشرحه.

وكان جليل القدر، يُرْحَل إليه من جميع الأقطار، وجَمَع رئاسة الدين والدنيا، وكان فقيهـًا شاعراً رحمه الله تعالى، مشهوداً له بالصلاح والورع.

مؤلفاته: له أكثر من ثلاثين كتابـًا؛ منها: كتابان مشهوران في الفقه المالكي، يعني معتمدان في الفقه المالكي: كتاب «النوادر والزيادات على المدونة»، وكتاب «مختصر المدونة»، قال القاضي عياض : (على كتابيه هذين المعوَّل بالمغرب في التفقه).

وكتاب «الرسالة»، هو أول كتاب مختصر في الفقه المالكي؛ فقبله توجد المدونة وغيره من الكتب المطولة، لكن أول كتاب مختصر في الفقه المالكي هو كتاب الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني.

وكتاب «الرسالة» اشتمل على مقدمة في العقيدة، -وهي التي نشرحها- فقد سَنّ سُنّة حسنة في هذا الأمر، سار عليها جماعة من الأئمة فافتتحوا كتب الفقه بمقدمات في العقيدة ، لكن لم يستمر الأمر على ذلك في التآليف المتأخرة، فقد صارت كتب العقيدة منفصلة عن كتب الفقه.

افتتح الإمام ابن أبي زيد القيرواني كتاب الفقه بمقدمة في العقيدة، ثم مسائل الفقه، ثم مسائل في الآداب، وفيه أربعة آلاف مسألة، لكنه على طريقة المختصرات.

ومن مؤلفاته أيضًا: كتاب «الذَّب عن مذهب مالك»، وكتاب «الرد على القَدَرية»وغير ذلك من المؤلفات.

شيوخه: منهم: الأئمة أبو بكر التميمي الأبهري، وأبو بكر بن اللّبّاد، وأبو الفضل القيسي، وأبو سعيد بن الأعرابي.

تلاميذه: منهم الإمام مكي بن أبي طالب القيسي، وعبد الله بن الوليد الأنصاري، وعبد الله بن غالب السبتي، وغيرهم من الأئمة[١].

---

[١] ترجمته: السير ١٧/ ١٠، الفهرست لابن النديم ٢٥٣، طبقات الفقهاء للشيرازي: ١٣٥، ترتيب المدارك ٤ / ٤٩٢ - ٤٩٧، فهرست ابن خير ٢٤٤، تاريخ الإسلام ٤ / ٧٥ / ٢، دول الإسلام ١ / ٣٣٥، العبر ٣ / ٤٣، ٤٤، عيون التواريخ ١٢ / ٢٤٥ / ٢، مرآة الجنان ٢ / ٤٤١، الديباج المذهب ١ / ٤٢٧ - ٤٣٠، النجوم الزاهرة ٤ / ٢٠٠، شذرات الذهب ٣ / ١٣١، هدية العارفين ١ / ٤٤٧، ٤٤٨.

متن مقدمة رسالة الإمام أبي محمد ابن زيد القيرواني[1]

قال رضي الله عنه وأرضاه:

الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته، وصوره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه وما يسره له من رزقه، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً، ونبه بآثار صنعته وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله، ويسر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى، فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين، وتعلموا ما علمهم، ووقفوا عند ما حد لهم، واستغنوا بما أحل لهم عما حرم عليهم.

أما بعد، أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك ابن أنس رحمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهَّل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك للوالدان كما تعلمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته، فأجبتك إلى ذلك،

---

[١] عقيدة السلف – مقدمة أبي زيد القيرواني لكتابه الرسالة، ونظمها: لأحمد بن علي المالكي الأحسائي (المتوفى: ١٢٨٥هـ)، تحقيق بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة.

لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله أو دعا إليه.

واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه، وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة ليراضوا عليها وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم وتعمل به جوارحهم؛ فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفي غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر.

وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون -إن شاء الله- يحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به، وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرق بينهم في المضاجع، فكذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم.

وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات.

وسأفصل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً ليقرب من فهم متعلميه إن شاء الله تعالى، وإياه نستخير وبه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات

من ذلك الإيمانُ بالقلب، والنُّطقُ باللّسان أنَّ الله إلَهٌ واحدٌ لا إله غيرُه، ولا شبيهَ له، ولا نَظيرَ له، ولا وَلَدَ له، ولا وَالِدَ له، ولا صاحبة له، ولا شريكَ له.

ليس لأَوَّلِيَّتِه ابتداءٌ، ولا لآخِرِيَّتِه انقضَاءٌ، لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِه الواصفون، ولاَ يُحيطُ بأمرِه المُتَفَكِّرونَ، يَعتَبِرُ المتفكِّرونَ بآياته، ولا يَتفكَّرونَ في مَاهِيَةِ ذاته، ولا يُحيطون بشيءٍ من عِلمه إلاَّ بِما شاء وَسِعَ كُرْسِيُّه السَّموات والأرض، ولا يؤُودُه حفظُهما وهو العليُّ العَظيمُ.

العالِمُ الخبيرُ، المُدَبِّرُ القَديرُ، السَّميعُ البصيرُ، العَلِيُّ الكَبيرُ، وَأنَّه فوقَ عَرشه المجيد بذاته، وهو في كلِّ مَكان بعِلمه.

خَلَقَ الإنسانَ ويَعلمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسُه، وهو أَقربُ إليه مِن حَبْلِ الوَرِيدِ، وما تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعلَمُها، ولاَ حَبَّةٍ في ظُلُمَات الأرضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ في كِتَاب مُبين.

على العَرشِ اسْتَوى، وعَلى المُلْكِ احْتَوى، وله الأسماء الحُسنى والصِّفاتُ العُلَى، لَم يَزَل بِجَميعِ صفاتِه وأسمائِه، تَعالى أن تكونَ صفاتُه مَخلوقَةً، وأسماؤُه مُحْدَثَةً.

كلَّم موسى بكلامِه الَّذي هو صفةُ ذاتِه لا خَلْقٌ مِن خَلقِه، وَتَجَلَّى للجَبَل فصار دَكًّا مِن جلالِه، وأنَّ القرآنَ كلامُ الله، ليس بمخلُوقٍ فيَبِيدُ، ولا صفة لمخلوقٍ فَيَنْفَدُ.

والإيمانُ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه، حُلْوِهِ وَمُرِّهِ، وكلُّ ذلك قَد قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّنا،

ومقاديرُ الأمورِ بيدِه، ومَصدَرُها عن قضائِه.

عَلِمَ كلَّ شيْءٍ قبل كَونِه، فجَرَى على قَدَرِه، لا يكون مِن عبادِه قَولٌ ولا عَمَلٌ إلاَّ وقدْ قَضَاهُ وسبق عِلْمُه به، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك: ١٤].

يُضِلُّ مَن يشاء فيَخْذُلُه بعدْلِه، ويَهدي مَن يَشاء فيُوَفِّقُه بفضلِه، فكلٌّ مُيَسَّرٌ بتَيْسيره إلى ما سَبَقَ مِن علمه وقَدَرِه، مِن شَقِيٍّ أو سعيدٍ.

تعالَى أن يكونَ في مُلْكِه ما لا يُريد، أو يكونَ لأَحَد عنه غِنًى، أو يكون خالقٌ لشيءٍ إلا هو رَبُّ العباد ورَبُّ أعمالِهم، والمُقَدِّرُ لِحَركاتِهم وآجالِهم، الباعثُ الرُّسُل إليهم لإقَامَةِ الحُجَّةِ عَليهم.

ثُمَّ خَتَمَ الرِّسالةَ والنَّذَارَةَ والنُّبُوَّةَ بمحمَّد نَبيِّه g، فجَعَلَه آخرَ المرْسَلين، بَشيراً ونَذيراً وداعياً إلى الله بإذنِه وسِرَاجاً منيراً.

وأنزَلَ عليه كتابَه الحكيمَ، وشَرَحَ به دينَه القَويمَ، وهَدَى به الصِّرَاطَ المستقيمَ.

وأنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها، وأنَّ اللهَ يَبعَثُ مَن يموتُ، كما بدأَهم يعودون.

وأنَّ اللهَ ﷻ ضاعَفَ لعباده المؤمنين الحسَنات، وصَفَحَ لهم بالتَّوبَة عن كبائرِ السيِّئات، وغَفَرَ لهم الصَّغائرَ باجْتناب الكبائر، وجَعَلَ مَن لَم يَتُبْ مِنَ الكبائر صَائراً إلى مَشيئَته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨] ومَن عاقَبَه اللهُ بنارِه أخرجه منها بإيمانه، فأدخَلَه به جَنَّتَه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة: ٧]، ويُخرِجُ منها بشفاعَة النَّبيِّ ﷺ مَن شَفَعَ له مِن أهلِ الكبائرِ مِن أمَّتِه.

وأنَّ اللهَ سبحانه قد خَلَقَ الجَنَّةَ فأَعَدَّها دارَ خُلُود لأوليائه، وأكرَمهم فيها بالنَّظر إلَى وَجْهِه الكريم، وهي الَّتِي أَهْبَطَ منها آدَمَ نبيَّه وخليفَتَه إلى أَرضِه بِما سَبَقَ فِي سابِق عِلمِه.

وخَلَقَ النَّارَ فأَعَدَّها دَارَ خُلُود لِمَن كَفَرَ به، وألْحَدَ في آياتِه وكتُبه ورُسُلِه، وجَعَلَهم مَحجُوبِين عن رُؤيَتِه.

وأنَّ اللهَ تبارك وتعالى يَجيءُ يَومَ القيامَة: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر: ٢٢]؛ لِعَرْضِ الأُمَمِ وَحِسَابِهَا وعقُوبَتِها وثَوابِها، وتُوضَعُ الموازِينُ لَوَزْنِ أَعْمَالِ العِبَادِ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ٨]، ويُؤْتَوْنَ صَحائِفهم بأعمالِهم: فمَن أُوتِي كتابَه بيمينه فسوف يُحاسَبُ حِساباً يَسيراً، ومَن أُوتِي كتابَه وراء ظَهْرِه فأولئك يَصْلَوْنَ سَعيراً.

وأنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُه العبادُ بِقَدْرِ أعمالِهم، فناجُون مُتفاوِتُون في سُرعَة النَّجاةِ عليه مِن نار جَهَنَّم، وقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُمْ فيها أعمالُهم.

والإيمانُ بِحَوْض رسولِ الله ﷺ، تَرِدُهُ أُمَّتُهُ لاَ يَظْمَأُ مَن شَرب مِنه، ويُذَادُ عنه مَنْ بَدَّلَ وغَيَّرَ.

وأنَّ الإيمانَ قَولٌ باللِّسانِ، وإخلاَصٌ بالقلب، وعَمَلٌ بالجوارِح، يَزيد بزيادَة الأعمالِ، وينقُصُ بنَقْصِها، فيكون فيها النَّقصُ وبها الزِّيادَة، ولا يَكْمُلُ قَولُ الإيمانِ إلاَّ بالعمل.

ولا قَولٌ وعَمَلٌ إلاَّ بنِيَّة، ولا قولٌ وعَمَلٌ ونِيَّةٌ إلاَّ بمُوَافَقَة السُّنَّة.

وأنَّه لا يكفُرُ أَحدٌ بذَنب مِنْ أهْل القِبْلَة.

وأنَّ الشُّهداءَ أحياءٌ عند ربِّهم يُرْزَقونَ، وأرْواحُ أهْل السَّعادَةِ باقِيةٌ ناعِمةٌ إلى يوم يُبْعَثون، وأرواحُ أهلِ الشَّقاوَةِ مُعَذَّبَةٌ إلى يوم الدِّين.

وأنَّ المؤمنينَ يُفْتَنُونَ في قُبُورِهم ويُسْأَلُون، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾[إبراهيم: ٢٧].

وأنَّ على العباد حَفَظَةً يكتُبون أعمالَهم، ولا يَسقُطُ شيْءٌ مِن ذلك عَن عِلمِ ربِّهِم، وأنَّ مَلَكَ الموتِ يَقْبِضُ الأرواحَ بإذن ربِّه.

وأنَّ خيْرَ القرون القرنُ الَّذين رَأَوا رسولَ الله ﷺ وآمَنوا به، ثمَّ الَّذين يَلُونَهم ثمَّ الَّذين يَلونَهم.

وَأفْضَلُ الصحابة: الخُلَفاءُ الرَّاشدون المَهْديُّون، أبو بكر ثمَّ عُمر ثمَّ عُثمان ثمَّ عليٌّ رضي الله عنهم أجمعين.

وأن لاَ يُذكَرَ أَحَدٌ مِن صحابَةِ الرَّسولِ ﷺ إلاَّ بأحْسَن ذِكْرٍ، والإمساك عمَّا شَجَرَ بَينهم، وأنَّهم أحَقُّ النَّاس، أن يُلْتَمَسَ لَهم أَحَسَن المخارج، ويُظَنَّ بهم أحْسن المذاهب.

والطَّاعَةُ لأئمَّة المسلمين مِن وُلاَة أمورِهم وعُلمائهم، واتِّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالح واقتفاءُ آثارِهم، والاستغفارُ لهم.

وتَركُ المراءِ والجِدَالِ في الدِّين، وتَركُ ما أَحْدَثَهُ المُحْدِثُونَ.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وأزواجِه وذريته، وسلَّم تَسليماً كثيراً.

نظم المقدمة للشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي[1]

الحمـــدُ لله حمداً ليـــس مُنْحَصرَا ... على أياديـــه مـــا يخفى ومـــا ظهرَا
ثم الصـــلاةُ وتســـليمُ المهيمنِ ما ... هبَّ الصَّبَا فـــأدرَّ العارضَ المَطرَا
على الذي شاد بنيانَ الهُدى فسَما ... وساد كلَّ الوَرَى فخراً وما افتخرَا
نبيِّنـــا أحمـــد الهـــادي وعَتْرَتـــه ... وصحبِه كلِّ مَـــن آوى ومَن نصرَا
وبعـــدُ فالعلمُ لَم يظفـــر به أحدٌ ... إلاَّ سَـــمَا وبأســـباب العُلَى ظفرَا
لا ســـيما أصل علم الدِّين إنَّ به ... ســـعادةَ العبد والمَنْجَى إذا حُشرَا

باب ما تعتقدُه القلوب وتنطق به الألسنُ من واجب أمور الديانات

وأوَّلُ الفرض إيمـــانُ الفؤاد كذا ... نُطْقُ اللِّسانِ بما في الذِّكر قد سُطرَا
أنَّ الإلهَ إلَهٌ واحـــدٌ صَمـــد ... فلا إلٰه ســـوى مَـــن للأنـــام برَا
ربُّ السموات والأرضين ليس لنا ... ربٌّ ســـواه تعـــالى مَن لنـــا فطَرَ
وأنَّـــه مُوجـــدُ الأشـــياء أجمعِها ... بلا شريـــك ولا عَـــوْن ولا وُزَرَا
وهو المُـــنَزَّه عـــن ولد وصاحبة ... ووالد وعـــن الأشـــباه والنُّظَـــرَا

[١] أحمد بن علي بن حسين بن مشرّف الوهيبي التميمي المالكي الأحسائي (المتوفى: ١٢٨٥هـ)

لا يبلغن كُنْهَ وصف الله واصفُه ... ولا يحيــط به علماً مَــن افتَكَرَا

وأنَّــه أوَّل بــاق فليــس له ... بدءٌ ولا منتهى سبحان من قدرَا

حيٌّ عليــمٌ قديــرٌ والــكلام له ... فردٌ ســميعٌ بصيرٌ مــا أراد جَرَى

وأنَّ كرســيَّه والعرشَ قد وَسِــعَا ... كلَّ الســموات والأرضين إذ كبرَا

ولم يزل فوق ذاك العرش خالقُنا ... بذاته فاســأل الوحيــين والفِطَرَا

إنَّ العلــوَّ به الأخبــارُ قد وَرَدَتْ ... عن الرَّســول فتابِع مَن رَوى وقرَا

فالله حق على المُلك احتوى وعلى ... العرش استوى وعن التكييف كُن حَذِرَا

والله بالعلــم في كلِّ الأماكن لا ... يخفاه شيءٌ سميعٌ شــاهدٌ ويَرَى

وأنَّ أوصافَــه ليســت بمُحدَثــة ... كذاك أســماؤه الحُسنى لِمَن ذكرَا

وأن تنْزيلَــه القــرآنَ أجمعَــه ... كلامُه غيرُ خلــق أعجز البشَرَا

وَحْيٌ تكلَّــم مولانــا القديمُ به ... ولم يزل من صفــات الله مُعْتبَرَا

يُتلَى ويُحمل حفظاً في الصدور كما ... بالخطِّ يُثبِتُه في الصُّحف مَن زَبَرَا

وأنَّ مــوسى كليــمُ الله كلَّمــه ... إلَهُــه فوق ذاك الطــور إذ حضرَا

فالله أســمعه مِن غير واســطة ... مــن وصفه كلمات تحتــوي عِبَرَا

حــتى إذا هــام سُــكراً في محبَّته ... قال الكليــم: إلَهي أســأل النَّظَرَا

إليــك. قــال له الرحمــن موعظة ... أنَّى تراني ونــوري يُدهشُ البَصَرَا

فانظر إلى الطور إن يثبت مكانته ... إذا رأى بعضَ أنواري فسوف ترَى

حـتى إذا ما تَجـلَّى ذو الجلال له ... تصدَّع الطورُ من خَوف وما اصطبَرَا

فصل في الإيمان بالقدر خيره وشرِّه

وبالقضـاء وبالأقـدار أجمعهـا ... إيمانُنـا واجـبٌ شرعاً كما ذكرَا

فـكلُّ شيء قضـاه الله في أزَل ... طرًّا وفي لوحه المحفوظ قد سطرَا

وكلُّ مـا كان من همٍّ ومن فرَح ... ومن ضلال ومن شكران مَن شَكَرَا

فإنَّـه مـن قضـاء الله قـدَّره ... فلا تكن أنت مِمَّن ينكر القَدَرَا

والله خالـقُ أفعال العبـاد وما ... يجري عليهم فعن أمر الإلَه جَرَى

فـفي يديه مقاديـر الأمور وعن ... قضائـه كلُّ شيء في الورى صَدَرَا

فمَن هَدى فبمحض الفضل وفَّقه ... ومن أضلَّ بعـدل منه قد كفرَا

فليس في مُلكه شيءٌ يكون سوى ... ما شـاءه الله نفعـاً كان أو ضررَا

فصلٌ في عذاب القبر وفتنته

ولم تَمُت قطُّ من نفس وما قُتلت ... من قبل إكمالها الرِّزق الذي قُدرَا

وكلُّ روح رسـولُ الموت يَقبضُها ... بإذن مولاه إذ تسـتكمل العُمُرَا

وكلُّ مـن مات مسـئولٌ ومفتتنٌ ... من حين يوضَعُ مقبـوراً ليُختبَرَا

وأنَّ أرواحَ أصحاب السـعادة في ... جنَّات عدن كطير يعلق الشَّجَرَا

لكنَّما الشُّـهَدا أحيا وأنفسـهم ... في جوف طير حسان تُعجب النَّظَرَا
وأنَّهـا في جنـان الخلد سـارحةٌ ... من كلِّ ما تشـتهي تجني بها الثَّمَرَا
وأنَّ أرواح مـن يشـقى معذَّبـةٌ ... حتَّى تكون مع الجُثمان فِي سَقَرَا

فصل في البعث بعد الموت والجزاء

وأنَّ نفخـةَ إسرافيـلَ ثانيـة ... في الصُّور حقٌّ فيحيا كلُّ مَن قُبرَا
كما بـدا خلقهـم ربِّي يُعيدهمُ ... سبحان من أنشأ الأرواحَ والصُّوَرَا
حتى إذا مـا دعا للجمع صارخُه ... وكلُّ ميْتٍ من الأمـوات قد نُشرَا
قـال الإلَه: قِفوهم للسـؤال لكي ... يقتـصَّ مظلُومُهم مِمَّـن له قَهَرَا
فيوقَفـون ألوفـاً من سـنينهمُ ... والشـمسُ دانيةٌ والرَّشْحُ قد كثُرَا
وجـاء ربُّـك والأمـلاكُ قاطبة ... لهم صفوفٌ أحاطت بالورى زُمَرَا
وجيء يومئـذ بالنـار تسـحبُها ... خزانهـا فأهالـت كلَّ مَـن نظَرَا
لهـا زفـيرٌ شـديدٌ مـن تغيظها ... على العُصاة وتـرمي نحوهم شَرَرَا
ويرسل الله صُحفَ الخلق حاويةً ... أعمالَهم كلَّ شيء جـلَّ أو صغُرَا
فمَن تلقَّتـه باليمـنى صحيفتُه ... فهْو السَّعيد الذي بالفوز قد ظفرَا
ومن يكن باليد اليسرى تناولُها ... دعا ثُبـوراً وللنيران قـد حُشرَا
ووزنُ أعمالهـم حـقٌّ فإن ثقلت ... بالخير فاز وإن خفَّت فقد خسرَا

وأنَّ بالمثل تُجزى السـيِّئات كما ... يكون في الحسنات الضِّعف قد وفرَا

وكلُّ ذنب سـوى الإشراكِ يغفرُه ... ربِّي لِمَن شا وليس الشركُ مُغتَفرَا

وجنَّة الخُـلد لا تفنى وسـاكنُها ... مخلَّدٌ ليس يخشى المـوتَ والكبرَا

أعدَّهـا اللهُ داراً للخلـود لِمَـن ... يخشى الإلَهَ وللنَّعماء قد شَـكَرَا

وينظـرون إلى وجـه الإلَه بهـا ... كما يرى الناسُ شمسَ الظهر والقمَرَا

كذلك النـارُ لا تفنى وسـاكنُها ... أعدَّهـا الله مولانا لِمَـن كَفَرَا

ولا يخـلد فيهـا مَـن يوَحِّـدُه ... ولو بسـفك دم المعصوم قد فَجَرَا

وكـم يُنجي إلَهي بالشـفاعة مِنْ ... خير البريَّة من عاص بِها سـجرَا

فصل في الإيمان بالحوض

وأنَّ للمصطفى حوضاً مسـافتُه ... ما بين صَنْعَا وبُصرَى هكذا ذكرَا

أحلَى من العسـل الصافي مذاقتُه ... وأنَّ كِيزَانَـه مثلُ النجـوم تُرَى

ولم يَـرِدْه سـوى أتباع سُـنَّته ... سيماهم: أن يُرى التَّحجيل والغُرَرَا

وكـم يُنـحَّى ويُنـفَى كلُّ مبتدع ... عن وِرْدِه ورجـالٌ أحدثوا الغيَرَا

وأن جـسراً على النِّـيران يَعـبُرُه ... بسرعة مَن لمنهـاجِ الهُدى عبَرَا

وأنَّ إيْمَانَنـا شرعاً حقيقتُـه ... قصـدٌ وقـولٌ وفعلٌ لـلذي أمرَا

وأنَّ معصيـةَ الرحْمـن تُنقصُـه ... كمـا يزيد بطاعات الذي شَـكَرَا

وأنَّ طاعــةَ أولي الأمــر واجبــةٌ ... من الهُــداة نجوم العلــم والأُمرَا
إلاَّ إذا أمــروا يومــاً بمعصيــة ... من المعاصي فيُلــغى أمرهم هَدَرَا
وأنَّ أفضــلَ قــرن للَّذيــن رأوا ... نبيَّنــا وبهــم دينُ الهُــدى نُصرَا
أعــنِي الصحابةَ رُهبــانٌ بليلهمُ ... وفي النهار لدى الهَيْجَا لُيوث شَرَى
وخيرُهم مَــن ولِي منهم خلافته ... والسَّبق في الفضل للصِّدِّيق معْ عُمَرَا
والتابعون بإحســان لهــم وكذا ... أتبــاع أتباعهم مِمَّن قفــا الأثَرَا
وواجــبٌ ذِكرُ كلّ مــن صحابته ... بالخير والكفُّ عمَّا بينهم شَــجَرَا
فلا تَخُض في حروب بينهم وقعت ... عن اجتهاد وكنْ إن خُضتَ معتذِرَا
والاقتداءُ بهــم في الدِّين مفتَرَضٌ ... فاقتَد بهم واتَّبع الآثار والسُّــوَرَا
وتركُ ما أحدثه المُحدِثون فكم ... ضلالــة تبعت والدِّين قــد هُجِرَا
إنَّ الهُدى ما هدى الهادي إليه وما ... به الكتــاب كتاب الله قــد أمَرَا
فلا مراء ومــا في الدِّين من جدلِ ... وهل يُجــادل إلاَّ كلُّ مَــن كفرَا
فهاك في مذهب الأســلاف قافيةً ... نظماً بديعــاً وجيزَ اللَّفظ مختصرَا
يحوي مهمّات باب في العقيدة من ... رســالة ابن أبي زيد الذي اشتَهَرَا
والحمــد لله مولانــا ونســأله ... غفران ما قــلَّ من ذنب وما كثرَا
ثــمَّ الصــلاةُ على مَن عــمَّ بعثته ... فأنذر الثَّقلَــين الجــنَّ والبَشَرَا

ودينُــه نَسَــخ الأديــانَ أجمَعَها ... وليس يُنْسَــخُ ما دام الصَّفَا وحِرَا

محمــد خــير كلِّ العالَــمين بــه ... ختم النبيِّين والرُّسل الكرام جَرَى

وليس من بعده يــوحَى إلى أحد ... ومن أجــاز فحَــلَّ قتلُــه هَدَرَا

والآلِ والصَّحبِ ما ناحت على فنَن ... وَرْقَــا ومَا غرَّدت قُمْريّة سَــحَرَا

شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني

قال رضي الله عنه وأرضاه:

الحمد لله الذي ابتدأ الإنسان بنعمته.

الحمد: هو الثناء على الجميل الاختياري.

والثناء قد يكون بالجَمِيل أو بالشر، يقال: (أثنى عليه خيراً) أو (أثنى عليه شراً)، والمقصود هنا هو الثناء بالجَميل؛ لأنه في حق الله ﷻ.

على الجميل الاختياري: أي لا يقال مثلاً: (حمدت الزهرة على طِيب رائحتها) أو (حمدت الجوهرة على جمال شكلها)؛ لأن هذا الشيء ليس لها اختيار فيه، فلا يُحمَد عليه، وإنما الحمد يكون في الشيء الاختياري الذي يستطيع أن يفعله أو لا يفعله، فإذا فعل ما هو جَميل باختياره حُمِد.

وعُرِّف حمد الله تعالى خاصة: بأنه هو الثناء على الله تعالى مع المحبة له والتعظيم.

قال: (**ابتدأ الإنسان**) أي أوجده (**بنعمته**) تَفضلاً منه ﷻ.

فالإيجاد هو نعمة أنعم الله تعالى بها على الإنسان.

والله ﷻ واجب الوجود، فلم يُسبَق بعدم، وأمّا الإنسان فهو ممكن الوجود، فكان يمكن أن يوجد أو لا يوجد، والله ﷻ أنعم على الإنسان وتفضل عليه فأوجده.

وصوره في الأرحام بحكمته، وأبرزه إلى رفقه، وما يسره له من رزقه، وعلمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيما.

وصوره: أي جعل له صورة (**في الأرحام**): أرحام الأمهات.

فاختار الله ﷻ لكل إنسان صورته بحكمة منه ﷻ، فهو الحكيم في ما يفعل وفي ما يقضي.

قال: (**وأبرزه إلى رِفْقِهِ**).

الإبراز: هو الإخراج من حيز العدم إلى حيز الوجود.

والرفق: هو الرأفة والرحمة.

فأبرز الله ﷻ الإنسان من العدم إلى الوجود ليرحمه.

فكأن المؤلف رحمه الله تعالى يُثني على الله ﷻ بمعاني أسمائه (الخالق، والبارئ، والمصور).

فالخالق: هو الذي قَدّر إيجاد الشيء قبل إيجاده.

والبارئ: هو الذي أبرزه إلى الوجود.

ولله تعالى المثل الأعلى، فالإنسان قد يُقَدّر إيجاد شيء، ويُصمم تصميماً معيناً وفكرةً معينة، لكن قد يعجز عن إخراجها وإبرازها إلى الوجود، لكن الله ﷻ هو الخالق البارئ، فكل ما قدّر إيجاده أوجده ﷻ بحكمته.

والمصور: هو الذي اختار لهذا الموجود الصورة التي يكون فيها.

(**وما يَسّره له من رزقه**)؛ أي ما سَهّله له من رزقه.

والرزق: هو الحظ والنصيب، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود:٦].

والرزق يشمل كل ما ينتفع به الإنسان في دينه أو في دنياه، ويشمل رزق القلب بالعلم والإيمان، ويشمل رزق البدن بالطعام والشراب والكسوة والذرية، وغير ذلك من أصناف النِّعَم.

قال: (**وعلمه ما لم يكن يعلم**) كما في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥]، وقال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[النساء:١١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[النحل:٧٨] .

قال: (**وكان فضل الله عليه**) على الإنسان (**عظيماً**).

والفضل: هو الزيادة، والمقصود هنا: الزيادة من الخير، فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء:١١٣] أي كل ما يزيد الله تعالى به العبد من الخير فهو فضل عظيم من الله ﷻ.

ونبهه بآثار صنعته، وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه.

الله سبحانه نَبّه الإنسان بآثار صنعته ﷻ، فكل الموجودات من شمس وقمر، وسماء وأرض، وبحر وشجر، وخِلقة الإنسان والحيوان وغير ذلك؛ كله تنبيه من الله تعالى لعبده على وجود الله سبحانه، ووحدانيته، وأسمائه وصفاته.

وتدل على عظمة موجدها وقُدرته، وعلى أنه الكبير والقوي والعليم لأنه ﷻ أوجدها بقدرة وقوة وعلمٍ وحكمةٍ.

قال: (**وأعذر إليه على ألسنة المرسلين الخيرة من خلقه**).

أعذر: أي قَطَع عُذره وأقام عليه الحجة، فلم يجعل له عُذراً يحتج به.

(**على ألسنة المرسلين**) أي أقام الله على الإنسان الحُجة، ولم يُبقِ له عُذراً أن يعتذر به، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

(**الخِيرة من خَلْقِه**) الرسل هم خِيرة خَلْق الله ﷻ، فهم الصفوة الذين اختارهم الله ﷻ واصطفاهم وفضّلهم.

فهدى من وفقه بفضله، وأضل من خذله بعدله.

الله ﷻ يهدي مَنْ يشاء، ويُضِلُّ مَنْ يشاء ﷻ؛ وهذا معتقد أهل السُّنة والجماعة: أن الله تعالى يهدي ويُضِل، خلافاً للمعتزلة الذين يزعمون أن الله تعالى لا يُضِلّ أحداً، وأن الله تعالى فقط يهدي، والذي ضَلّ فإنما ضل بنفسه.

لكن الله ﷻ، قال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام:٣٩] فمَنْ ضل فهو بمشيئة الله تعالى، ومَنْ اهتدى فهو بمشيئة الله تعالى.

فمَنْ وَفقه الله تعالى للهداية فهذا من فضل الله ﷻ.

(**وأضل مَنْ خَذَلَه بعدله**).

العدل: هو وَضْع الشيء في موضعه.

خَذَلَه: أي عامله الله بعدله، فخَلّى بينه وبين أسباب الضلال، فلم يعصمه من الضلال، ولم يحفظه من الضلال والهلاك فهلك.

فالنفوس التي أضلها الله ﷻ مُستحقة للضلال؛ لعلم الله ﷻ فيها أنها لا تستحق الهداية، فهي نفوس خبيثة، لا تستحق الهداية.

ويسر المؤمنين لليسرى، وشرح صدورهم للذكرى، فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين، وتعلموا ما علمهم، ووفقوا عند ما حد لهم، واستغنوا بما أحل لهم عما حرم عليهم.

الله ﷻ يَسّر المؤمنين لليسرى، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الليل:٧].

واليسرى: فُسِّرَت بأنها العمل بما يُرضي الله تعالى.

وفُسِّرت: بالجنة.

وبين الأمرين تلازم، فمَنْ يَسّره الله تعالى للعمل بما يرضيه فهذا معناه أنه يَسّره للجنة وسَهّل له الطريق الموصلة إلى الجنة.

فعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾[الليل: ٥-١٠][١].

قال: (**وشَرَح صدورهم للذِّكْرى**)؛ أي وَسّع صدورهم (**للذِّكْرى**) لتكون قلوبهم

---

[١] أخرجه البخاري ٤٩٤٩، ومسلم ٢٦٤٧.

قابلةً للتذكير منتفعةً به، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات:٥٥]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[ق:٣٧] أي قلب حي مؤمن ينتفع بالذكرى ويستفيد بها.

ومَنْ أضله الله ﷻ فقد ضَيّق صدره، قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[الأنعام:١٢٥] .

قال: (**فآمنوا بالله بألسنتهم ناطقين، وبقلوبهم مخلصين، وبما أتتهم به رسله وكتبه عاملين**) يشير إلى أن الإيمان بالله ﷻ يشمل النطق باللسان، والعمل بالقلب إخلاصاً لله ﷻ، والعمل بالجوارح بما أتت به الرسل وأنزل الله ﷻ به الكتب[١]، فهو ذكر الإيمان بالله، وذكر الإيمان بالرسل، وذكر الكتب التي أنزلها الله ﷻ، وكذلك ذكر القدر وأشار إليه في ذِكْر الهداية والإضلال.

وسيأتي كلامه عن القدر، وعن البعث، وهذا من مزايا هذا الكتاب على اختصاره، أنه شَمِل أركان الإيمان كلها.

قال: (**وتعلّموا ما علّمهم، ووقفوا عند ما حَدّ لهم**) المؤمنون الذين يَسّرهم الله تعالى لليسرى وشرح صدورهم فآمنوا بالله ﷻ، وجمعوا بين العلم والعمل، فتعلموا ما علّمهم الله ﷻ مما أنزله في كتبه، وتكلمت به رسله، ووقفوا عند ما حدّ لهم.

والحدود هي التي جعلها الله ﷻ فاصلةً بين الحلال والحرام.

---

[١] راجع شرح فَتْح العَلاّم في نَظْم مسائل الأسماءِ والأحكام.

فما أحلّه الله ﷻ له سُوران يحدّانه عن يمينه وشماله كما ضرب النبي ﷺ لذلك مثلاً، فعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الكِلَابِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **إِنَّ اللهَ ضَرَبَ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، عَلَى كَنَفَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ لَهُمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، عَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَهُ** ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥] **وَالأَبْوَابُ الَّتِي عَلَى كَنَفَيِ الصِّرَاطِ حُدُودُ اللهِ فَلَا يَقَعُ أَحَدٌ فِي حُدُودِ اللهِ حَتَّى يُكْشَفَ السِّتْرُ وَالَّذِي يَدْعُو مِنْ فَوْقِهِ وَاعِظُ رَبِّهِ**»[1] فعلى جانبي الصراط سُوران، سورٌ مَنْ تخطاه دخل في البدعة والإفراط، وسورٌ آخر مَنْ تخطاه دخل في الفسق والمعصية والتفريط، فلا بد أن يسير المؤمن بين هذين السورين.

قال ﷻ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ﴾[التوبة:١١٢]، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة:٢٢٩]، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾[البقرة:١٨٧] فنهى عن قُربان وعن تَعدّيه، فإذا اقترب من هذا الحد فإنه يقترب من الحرام.

فـ(**وفقوا عند ما حَدّ لهم**) يعني لم يتجاوزا الحدود التي حدّها الله ﷻ.

وبصفة عامة، فحدود الله تعالى تأتي بمعنى شرائعه، وما فرض الله ﷻ على عباده وما حرّم عليهم.

قال: (**واستغنوا بما أحلّ لهم عما حَرّم عليهم**) هذا مستفاد من دعاء النبي ﷺ: « **اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ**»[2] فاستغنوا بما أحلّ الله ﷻ لهم عن ما حرّم عليهم ﷻ.

---

[١] أخرجه الترمذي ٢٨٥٩ بسند صحيح.

[٢] أخرجه الترمذي ٣٥٦٣، بسند حسن.

أما بعد، أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح، وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها، وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك ابن أنس رحمه الله تعالى وطريقته، مع ما سهَّل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين، لما رغبت فيه من تعليم ذلك للوالدان كما تعلمهم حروف القرآن، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته، فأجبتك إلى ذلك، لما رجوته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله أو دعا إليه.

(**أمّا بعد**) كلمة يُؤتى بها للانتقال من مقدمة الكتاب أو الخطبة إلى الغرض المقصود، أو للفصل بين خطبة الكتاب وموضوعه.

ويقال لها: فَصْل الخطاب، وفُسِّر بها قول الله ﷻ عن نبيّه داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[ص:٢٠] فجاء في التفسير: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[ص:٢٠] أي كلمة: (أما بعد).

وكان من سُنّة النبي ﷺ في خُطَبه أن يفتتح خُطبه ﷺ بحَمْد الله تعالى، والثناء عليه، والشهادتين، والصلاة على النبي ﷺ، ويقرأ آيات، ثم يقول: (أمّا بعد).

قال: (**أعاننا الله وإياك**) مما يُشرَع عند الدعاء للغير أن يدعو لنفسه ثم يدعو

لغيره، فيقول مثلاً: غفر الله لنا ولك، هدانا الله وإياك، فيجمع بين الدعاء لنفسه والدعاء لغيره.

ولا يلزم هذا في كل دعوة، فلو دعا مباشرة لغيره فيجوز ذلك، لما ورد عن النبي ﷺ أنه دعا لابن عباس فقال: «**اللهُمَّ فَقِّهْ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[١]، فلم يَقُل: فَقِّهنا وإياه، وعَلّمنا وإياه، وكثير من دعواته ﷺ لغيره دعا لهم مباشرةً.

فقوله: (**أعاننا الله وإياك**) يدعو لنفسه ولقارئ كتابه عمومـًا ولِمَنْ طلب منه تأليف هذا الكتاب خصوصـًا.

لأن الإمام ابن أبي زيد رحمه الله كتبه بناءً على طلب من صاحبٍ له اسمه أبو محفوظ محرز بن خلف البكري التونسي، وُلِد سنة (٣٤٠)، وتوفي سنة (٤١٣) وكان مؤدبـًا للصبية، ومُعلم قرآن، طلب من الإمام أن يكتب شيئـًا يستعين به في تعليم الأطفال، فكتب هذا الكتاب.

كذلك: (**أعاننا الله وإياك**) يطلب العون من الله ﷻ وهو الْمَدد والمساعدة، وكان النبي ﷺ يقول: «**اللهم أعني على ذِكْرك وشُكرك وحُسن عبادتك**»[٢]، وفي الصلاة نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة:٥].

قوله: (**على رعاية ودائعه**)؛ **الودائع**: ما أودعه الله تعالى عند الإنسان من الأمانات.

وهو يشير إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ

---

[١] أخرجه أحمد في مسنده ٢٣٩٧ بسند صحيح، وله شاهد عند البخاري ١٤٣، ومسلم ٢٤٧٧.

[٢] أخرجه أخرجه أبو داود (١٥٢٢) وغيره، بسند صحيح.

فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾[الأحزاب:٧٢].

عن ابن مسعود ﷺ قال: «**الصَّلَاةُ أَمَانَةٌ، وَالْوُضُوءُ أَمَانَةٌ، وَالْوَزْنُ أَمَانَةٌ، وَالْكَيْلُ أَمَانَةٌ، وَأَشْيَاءُ عَدَّدَهَا، وَأَعْظَمُ ذَلِكَ الْوَدِائِعُ**»[١].

والرعاية: أي الحفظ والصون لهذه الودائع، والقيام بحقها.

لأن الله تعالى ذكر النصارى فقال: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[الحديد:٢٧].

قوله: (**وحِفْظِ ما أَوْدَعَنَا من شرائعه**) الإنسان عليه أن يحفظ حدود الله ﷻ كما في قوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾[التوبة:١١٢]، وقول النبي ﷺ لابن عباس: «**احفظ الله يحفظك**».

قوله: (**فإنك سألتني**)؛ الخطاب هنا لصاحبه أبي محفوظ البكري مُؤدّب الصبيان الذي طلب منه أن يكتب هذا الكتاب.

وكثير من المؤلفين دائماً يذكرون في بداية تآليفهم أنهم كتبوها استجابةً لطَلَبِ بعض الناس، فيكتب المؤلف كتابه ويذكر مَنْ طَلَب منه تأليف الكتاب[٢].

قال: (**فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة**).

(**جملة**) أي كلام مُجمَل مختصر غير مُفَصّل.

(**الديانة**) أي الدين، ويشمل المراتب الثلاثة (الإحسان، والإيمان، والإسلام) كما في حديث جبريل.

---

[١] أخرجه البيهقي في الشعب ٤٨٨٥.

[٢] انظر: مقدمة إجزال العطية شرح الشبراوية، ص ٢١.

(**مما تنطق به الألسنة، وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح**) مرةً أخرى بَيّن أن الدين يشمل نُطْقًا باللسان، واعتقاداً بالقلب، وعَمَلاً بالجوارح.

(**وما يتصل بالواجب من ذلك من السُّنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها**) يقول: أنت سألتني أن أكتب لك بإجمال ما يجب من الدين، وما يتصل بالواجبات من السُّنن(**من مؤكدها ونوافلها ورغائبها**).

والسّنن على اختلافها؛ منها: المؤكد، ومنها: النوافل، ومنها: الرغائب.

فالمؤكد: هو ما واظب عليه النبي ﷺ، كركعتي الفجر.

والنوافل: هي السُّنة التي لم يَحدّها بحَدٍّ ولم يُظهرها في جماعة، كصيام يوم في سبيل الله.

والرغائب: هي السُّنة التي حدّها بحَدٍّ وأظهرها في جماعة، يعني جعل له عدداً مخصوصًا أو وقتًا مخصوصًا، كصيام يوم عرفة، والاثنين والخميس.

وبعض المذاهب يُفَرّقون بين أنواع السُّنن، ومصطلح السُّنة، والنافلة، والرغيبة.

ومن الفقهاء مَنْ يجعل هذه الأمور (السُّنة، والنّفل، والتطوع، والندب، والمستحب) بمعنى واحد، وبعضهم يخص بعض أنواع المستحبات باسم يُميزه على الآخر.

لكن بصفة عامة: كل المستحبات والسُّنن، والنوافل والرغائب والتطوعات، وما أشبه ذلك من الألقاب الدالة على هذا المعنى كلها يقال في تعريفها: أنه ما طلب الشارع فِعْله لا على وجه الحَدّ والإلزام.

أو في تعريف آخر: ما يُثاب فاعله ولا يُعاقَب تاركه.

قال: (**وشيء من الآداب منها**) اشتمل الطلب أيضا على ذِكْر بعض الآداب.

والآداب: جَمْع أدب، وعُرِّف الأدب بأنه ما يُحترَز به عن الخطأ، فيشمل ذلك آداب اللباس، وآداب المشي، وآداب الأكل، وآداب النوم، وآداب الجلوس. وغير ذلك.

قال: (**وجُمَل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته**) الفنون هنا: بمعنى الفروع، يريد أن يذكر له أصول الفقه، وفروع الفقه.

والأصل: هو ما يُبنى عليه غيره.

فـ (**أصول الفقه**): هي قواعده الكلية وأدلته.

(**على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته**) لأن مذهب الإمام مالك رحمه الله كان منتشراً في القيروان وفي بلاد المغرب عمومـًا، وفي الأندلس، وفي غيرها من البلدان، وما زال إلى وقتنا.

قال: (**مع ما سَهّل سبيل ما أَشْكَلَ من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين**) طلب منه أن يذكر له ما يُسَهّل ما أشكل.

والشيء الْمُشكِل هو الذي يحتاج إلى بيان وتوضيح.

فطلب منه أن يكون الكتاب مختصراً، وأن يضع تفسيرا للشيء الْمُشكل.

والبيان: هو التوضيح وإزالة الإشكال. **والتفسير:** كذلك.

فيذكر تفسير الراسخين في العلم المتمكنين منه، ويذكر بيان المتفقهين لهذه المواضع المشكلة.

قال: (**لما رَغِبْتَ فيه من تعليم ذلك للولدان كما تُعَلِّمهم حروف القرآن**) كما مر أن الذي طلب منه تأليف الكتاب هو صاحبه أبو محفوظ البكري مُعلم الصبيان، فهو يريد أن يُعلّمهم العقيدة والفقه والآداب كما يعلمهم القرآن.

قال: (**ليسبق إلى قلوبهم من فَهْم دين الله وشرائعه ما تُرْجَى لهم بركته وتُحْمَد لهم عاقبته**) الحكمة من تعليم الأطفال معاني القرآن الكريم وتعليمهم أساس الاعتقاد والفقه والآداب حتى (**يسبق إلى قلوبهم من فَهْم دين الله وشرائعه**) قبل أن يدخل في قلوبهم شيء آخر من الفساد، لأن قلوب الأطفال خالية لا شيء فيها، وأنت تملؤها.

فتعليم الذي لم يتلوث قلبه بشُبهات ولا بباطل أسهل من غيره، فالقلب مثل إناء نظيف فارغ وتُعبئه، بخلاف أن يكون متسخًا، فيكون المجهود أكبر.

(**ما تُرْجَى لهم بركته**)

البركة: هي دوام الخير وزيادته.

فتعليم الخير تعود عليهم بركته في الدنيا والآخرة.

(**وتُحْمَد لهم عاقبته**) تكون العاقبة حميدة في الآخرة.

قال: (**فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسي ولك من ثواب مَنْ عَلّم دين الله أو دعا إليه**) الدافع الذي دفعه إلى تأليف هذا الكتاب هو ثواب المعلم، وثواب الداعي إلى الله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[فصلت:٣٣].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**» [١].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ يَسْتَحْمِلُهُ، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ مَا يَحْمِلُهُ فَدَلَّهُ عَلَى آخَرَ فَحَمَلَهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: «**إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ**»[٢].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ**»[٣].

---

[١] أخرجه مسلم ٢٦٧٤.

[٢] أخرجه الترمذي ٢٦٧٠ بسند صحيح.

[٣] أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه، وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها، وتنبيههم على معالم الديانة، وحدود الشريعة ليراضوا عليها وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم وتعمل به جوارحهم؛ فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفي غضب الله، وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر.

قال: (**واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير**).

أوعاها: يعني أحفظها، ومنه الوعاء، سُمي وعاءً لأنه يحفظ ما بداخله، ووعى الشيء: يعني حَفْظه.

وأفضل القلوب هي التي تحفظ الخير.

وكلامه مستفاد من مثلٍ ضربه النبي ﷺ ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»[١].

---

[١] أخرجه البخاري ٧٩، ومسلم ٢٢٨٢.

قال النووي: « ومعناه أن الأرض ثلاثة أنواع وكذلك الناس:

فالنوع الأول من الأرض: ينتفع بالمطر فيحيى بعد أن كان ميتا وينبت الكلأ فتنتفع بها الناس والدواب والزرع وغيرها، وكذا النوع الأول من الناس يبلغه الهدى والعلم فيحفظه فيحيا قلبه ويعمل به ويعلمه غيره فينتفع وينفع.

والنوع الثاني من الأرض: مالا تقبل الانتفاع في نفسها لكن فيها فائدة وهي إمساك الماء لغيرها فينتفع بها الناس والدواب، وكذا النوع الثاني من الناس لهم قلوب حافظة لكن ليست لهم أفهام ثاقبة، ولا رسوخ لهم في العقل يستنبطون به المعاني والأحكام، وليس عندهم اجتهاد في الطاعة والعمل به فهم يحفظونه حتى يأتي طالب محتاج متعطش لما عندهم من العلم أهل للنفع والانتفاع فيأخذه منهم فينتفع به فهؤلاء نفعوا بما بلغهم.

والنوع الثالث من الأرض: السباخ التي لا تنبت ونحوها فهي لا تنتفع بالماء ولا تمسكه لينتفع بها غيرها، وكذا النوع الثالث من الناس ليست لهم قلوب حافظة ولا أفهام واعية فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ولا يحفظونه لنفع غيرهم» [١].

(**وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه**) يشير إلى أن قلوب الأطفال أفضل من قلوب الكبار؛ لأن قلوبهم أقدر على الحفظ من الكبار، ونقية صافية لم يسبق الشر إليها.

قال: (**وأَوْلَى ما عُنِي به الناصحون ورَغِب في أَجْره الراغبون: إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها**) لما يتميز به الأطفال، وبما يرجى لهم عند

---

[١] شرح النووي على مسلم ١٥ / ٤٨.

الكبر إن نشأوا على الصلاح والاستقامة، فالعناية بهم أولى.

قال: (**وتنبيههم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليُرَاضوا عليها وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم وتعمل به جوارحهم**) وتنبيه الأطفال على أصول الدين وقواعده وما شرع الله تعالى من الشرائع (**ليُرَاضوا عليها**) من الرياضة أي ليتدربوا عليها ويتمرنوا عليها.

قال: (**فإنه رُوِي أن تعليم الصغار لكتاب الله يُطْفئ غضب الله**).

قوله: (رُوي) تسمى بصيغة التمريض في علم مصطلح الحديث، وتفيد عدم التيقن من صحة الحديث.

وهذا الحديث لم أجده في الكتب المسندة المعتمدة عند أهل السنة والجماعة، وإنما وجدته في مسند الربيع بن حبيب عن أنس ﷺ مرفوعًا عن النبي ﷺ قال: «تعليم الصبيان يُطفئ غضب الرب».

ومسند الربيع بن حبيب لا يؤخذ به عند أهل السنة، فمؤلفه من أئمة الإباضية -فرقة من الخوارج منتشرة بعمان- وهم يعظمون الكتاب ويسمونه (الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع)، رغم أن الربيع بن حبيب هذا مجهول، وكتابه مشحون بالأحاديث الواهية والموضوعة والباطلة.

قال الشيخ الألباني: " الربيع هذا نكرة؛ لا يعرف في شيء من كتب تراجم علمائنا، حتى الإباضيون لم يستطيعوا أن يذكروا لنا شَيْئًا من تاريخ حياته؛ سوى أنهم تكلفوا جِدًّا في ذكر شيوخه ومن روى عنه اِعْتِمَادًا منهم على مصادرهم الخاصة بهم والمتأخرة جِدًّا عن عصر الربيع هذا، ولم يعزوا ترجمته إلى كتاب

من كتب التراجم والتاريخ المعروفة"[١].

وقال أيضا: «مسند الربيع بن حبيب الذي سموه بالمسند الصحيح، لا صلة له بالصحيح من الحديث إلا ما كان فيه مَسْرُوقًا من كتب أهل السنة»[٢].

تنبيه: قد يحدث خلط بين الربيع بن حبيب الإباضي، وبين الربيع بن حبيب أبي سلمة، فالأول مجهول وكتابه ساقط لا سند له، والثاني من رواة أهل السنة وثقه الإمام يحيى بن معين وغيره.

هذا، والحديث من جهة المعنى مقبول، فتعليم الأطفال فيه أجر عظيم، والحسنات يذهبن السيئات، ولذلك فإن الإمام ابن أبي زيد القيرواني لم يسنده، وذكره بصيغة التمريض؛ لأنه أراد المعنى العام.

(**وأن تعليم شيء في الصغر كالنقش في الحجر**) النقش في الحجر يبقى ثابتًا، كالنقوشات الحجرية في مصر والعراق وغيرها باقية منذ آلاف السنين.

وكذلك تعليم الشيء في الصغر يثبت ويظل أثره باقيًا موجوداً.

---

[١] السلسلة الضعيفة ١٢ / ٩٢١.

[٢] السابق ١٢/ ٩٣١.

وقد مثلت لك من ذلك: ما ينتفعون -إن شاء الله- بحفظه، ويشرفون بعلمه، ويسعدون باعتقاده والعمل به.

وقد جاء أن يؤمروا بالصلاة لسبع سنين، ويضربوا عليها لعشر، ويفرق بينهم في المضاجع، فكذلك ينبغي أن يعلموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأنست بما يعملون به من ذلك جوارحهم.

وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات.

وسأفصل لك ما شرطت لك ذكره باباً باباً ليقرب من فهم متعلميه إن شاء الله تعالى، وإياه نستخير وبه تستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

قال: (وقد مَثّلْتُ لك من ذلك) أي بيّنت وجعلت لك المسائل كالمثال الموضح للقواعد (ما ينتفعون إن شاء الله بحفظه ويَشْرفون بعلمه ويسعدون باعتقاده والعمل به) أي ذكر المسائل التي إن علموها وحفظوها نالوا الشرف والرفعة في الدنيا والآخرة، وتحصل لهم السعادة في الدنيا والآخرة.

قال: (**وقد جاء أن يُؤمَروا بالصلاة لسبع سنين ويُضْرَبوا عليها لعشرٍ، ويُفَرَّق بينهم في المضاجع**).

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»[١].

يجوز الضرب بعد بلوغ العشر عند الحاجة إليه، وانعدام وسيلة أفضل منه، فالضرب ليس تحتيمًا ولا حثًا عليه، وإنما تبيينٌ لجوازه بعد بلوغ عشر، ولا يجوز قبل هذه السِّن.

قال: (**فكذلك ينبغي أن يُعَلَّموا ما فرض الله على العباد من قول وعمل قبل بلوغهم ليأتي عليهم البلوغ وقد تمكن ذلك من قلوبهم، وسكنت إليه أنفسهم، وأَنِسَت بما يعلمون به من ذلك جوارحهم**) يُشَبّه مسألة تعليم الصلاة والنهي عن الاجتماع في المضاجع ببقية أمور الدين، وأن هذه الأمور يُؤمَرون بها لسبع ويُعاقَبون إذا خالفوها بعد العشر، فكذلك بقية أمور الدين، فالنبي ﷺ ضرب المثل بالصلاة، ومسألة التفريق في المضاجع، وليس القصد أن هذا منحصر في هذين الشيئين، وإنما أمور الدين والعقائد يُعَلّمون إياها قبل البلوغ، حتى إذا بلغوا كانت العقيدة قد استقرت في قلوبهم، وكانت الأعمال قد تعودت عليها جوارحهم فيُدَرّبون على الصيام، والبنت تُدَرّب على الحجاب من قبل البلوغ.

---

[١] أخرجه أبو داود ٤٩٥، بسند حسن صحيح.

(**وقد فرض الله سبحانه على القلب عملاً من الاعتقادات، وعلى الجوارح الظاهرة عملاً من الطاعات**) أعمال القلوب كمحبة الله تعالى وخشيته والخوف منه ورجائه والتوكل عليه ونحو ذلك، فسماها عملاً للقلب وسماها اعتقاداً للقلب، والأعمال القلبية يقال لها الباطنة.

وأما أعمال الجوارح الظاهرة: فهي التي يعمل بها الإنسان ويكتسب بها الإنسان كاليد والرجل والسمع والبصر، فهذه كلها من الجوارح.

قال: (**وسأفصل لك ما شرطت لك ذِكْرَه باباً باباً ليَقْرُب من فَهْم متعلميه إن شاء الله تعالى**)؛

(**وسأفصل لك**) من التفصيل: وهو التوضيح والتبيين والتفريق بين الأشياء.

(**ما شرطت لك ذِكْرَه باباً باباً**) أي ما اشترطه على نفسه، أنه سيذكر الواجبات والسُّنن والعقائد والآداب، ومسائل الفقه، على هيئة أبواب متتالية.

(**ليَقْرُب من فَهْم متعلميه إن شاء الله تعالى**) حتى يسهل على المتعلمين فَهْمه.

(**وإياه نستخير**) الله ﷻ.

والاستخارة: هي طَلَبُ خير الأمرين، فهو يطلب من الله تعالى أن يُرشده لخير الأمرين، إما بصلاة استخارة صلاها، أو بمعنى الدعاء أن يرشده الله إلى الخير.

(**وبه نستعين**) يطلب من الله تعالى العون.

(**ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**) هذه الكلمة كنز من كنوز الجنة،

فعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ لِي رسول الله: «**يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟**» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، قَالَ: «**لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»[١].

ومعناها: لا تحول عن ما يُكرَه سواء في الدين أو في الدنيا إلا بمَدَدٍ وعون من الله ﷻ.

(**ولا قوة**) على ما يُحمَد ويُحَب من خيري الدين والدنيا إلا بمعونة ومَدد من الله ﷻ.

(وصلى الله على سيدنا محمد نبيّه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً)

الصلاة على النبي ﷺ: ثناء الله تعالى عليه في الملأ الأعلى، يعني عند الملائكة؛ وهذا تفسير مأثور عن التابعي أبي العالية.

والتفسير الآخر: أنها بمعنى الرحمة.

(**سيدنا محمد**) محمد عليه الصلاة والسلام هو سيد ولد آدم، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**»[٢].

(**وآله**) الآل: تارة تأتي بمعنى قرابته المؤمنين به، وتارة تأتي بمعنى عموم أتباع النبي عليه الصلاة والسلام.

---

[١] أخرجه البخاري ٤٢٠٥، ومسلم ٢٧٠٤.

[٢] أخرجه مسلم ٢٢٧٨.

وفي الصلاة على النبي ﷺ يُوَسّع في معناها فتشمل جميع أتباع النبي ﷺ والمؤمنين به، لكن عند الحديث عن آل النبي ﷺ في الأحكام الفقهية الخاصة بالآل في أحكام مَنْ يستحق الفيء ومَنْ تحرم عليه الصدقة، فيكون الحديث عن قرابته المؤمنين به.

وعلى الخلاف بين الفقهاء هل هم بنو هاشم فقط أو بنو هاشم وبنو المطلب؟.

(**وصحبه**) جمع صاحبٍ وهو مَنْ لقي النبي ﷺ مؤمناً به ومات على ذلك.

(**وسلم تسليما كثيراً**) أي سَلّمه من كل شر وسوء في الدنيا والآخرة.

باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات

من ذلك الإيمانُ بالقلب، والنُّطقُ باللِّسان أنَّ اللهَ إلَهٌ واحدٌ لا إله غيرُه، ولا شبيهَ له، ولا نَظيرَ له، ولا وَلَدَ له، ولا وَالِدَ له، ولا صاحبة له، ولا شريكَ له.

بدأ بذِكْر الواجبات التي تنطق بها الألسنة وتعتقدها القلوب، فقال: (**من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان أن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له**) ويقصد: النطق بالشهادتين.

ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله موجودة في القرآن الكريم، كسورة الإخلاص والناس وفي غيرها من سُوَر القرآن الكريم.

فيعتقد بقلبه، ويتلفظ بلسانه، (**أن الله إله واحد لا إله غيره**) والمؤلف لا يقصد هذه الصيغة بنفسها، لأنها ليست صيغة آية أو حديث، ولكن يقصد النطق بكلمة التوحيد.

وهذا يشمل توحيد الله ﷻ في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فهو ﷻ إله واحد.

و(الإله) في اللغة: على وزن فعال، بمعنى مفعول، وهو المعبود، وعندما نقول:

(لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله ﷻ، فهو سبحانه واحد في ربوبيته، أي هو وحده الخالق الرازق المدبر المتصرف في الكون.

وهو ﷻ واحد في ألوهيته: أي يفرده وحده بالعبادة، فلا نصلي إلا له، ولا نذبح إلا له، ولا ندعو غيره ﷻ.

وهو واحد في أسمائه وصفاته ﷻ، فنثبت لله عز وجل ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات، وننفي عن الله ما نفاه عن نفسه.

(**ولا شبيه له**) الشبيه هنا بمعنى المثيل، و ليس لله تعالى مثيل.

(**ولا نظير له**)النظير: هو المساوي، وليس لله ﷻ مثيل ولا مساوٍ لله ﷻ.

(**ولا ولد له، ولا والد له**) ﷻ هو مُنَزّه عن ذلك، قال سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[الإخلاص:٣].

(**ولا صاحبة له**) الصاحبة: الزوجة، كما قال عز وجل: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾[الأنعام:١٠١]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[الجن:٣].

(**ولا شريك له**) لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ولا في أسمائه وصفاته ﷻ.

ليس لأَوَّلِيَّته ابتداءٌ، ولا لآخريَّته انقضَاءٌ، لا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَته الواصفون، ولاَ يُحيطُ بأمرِه المُتَفَكِّرونَ، يَعتَبِرُ المتفكّرون بآياته، ولاَ يَتَفَكَّرونَ في مَاهِيَةِ ذاته، ولا يُحيطون بشيءٍ من عِلمه إلاَّ بِما شاء، وَسِعَ كُرْسِيُّه السَّموات والأَرض، ولا يؤُودُه حفظُهما وهو العليُّ العَظيم.

(**ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء**) الله ﷻ هو الأول والآخر كما في كتابه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾[الحديد:٣] ، وهذا معنى قول النبي ﷺ: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**»[١] ﷻ.

فالله عز وجل هو الأول ليس قبله شيء، وهو الآخر ليس بعده شيء.

وهنا إشكال حول المسائل المتعلقة بأولية الله تعالى وآخريته.

فطريقة السلف الصالح وأهل الحديث: أن الله ﷻ لم يكن مُعَطّلاً عن الخلق والإيجاد ولا عن الأسماء ولا عن الصفات، في وقت من الأوقات، فالله ﷻ لم يزل يخلق ولم يزل يرزق ويحيي ويميت ويفعل ما يشاء ﷻ.

وبناءً على ذلك قالوا: جنس المخلوقات قديم، يعني لم يزل الله ﷻ يخلق، لكن المخلوق المعين حادث، فأي مخلوق لا بد أنه كان عدمًا وأوجده الله ﷻ.

لكن كل مخلوق هو مسبوق بمخلوق، وهذه مسألة يسمونها تسلسل الحوادث في الماضي، يعني كل مخلوق قبله مخلوق، والمخلوق هذا قبله مخلوق،

---

[١] أخرجه مسلم (٢٧١٣) عن أبي هريرة.

والمخلوق قبله مخلوق، لأن الله ﷻ لم يكن مُعطّلاً عن الخلق في وقت من الأوقات.

وزعمت المعتزلة؛ أن الله تعالى كان مُعطّلاً عن أسمائه وصفاته، فلم يكن له لا اسم ولا صفة، فلما خلق المخلوقات تسمى بالخالق، ولما سمع تسمى بالسميع، فيزعمون أنه في وقت لم يكن الله تعالى سميعًا ولا بصيراً ولم يخلق ولم يسمع ولم يبصر.

والأشاعرة يقولون: إن الأسماء قديمة، يعني لم يزل الله ﷻ سميعًا وبصيراً وخالقًا وقديراً، لكنه كان ﷻ خالقًا بدون خَلْق، يعني كان مُعطّلاً عن الخلق في وقت ثم خلق.

لكن طريقة السلف وأهل الحديث- كما بَيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- أن الله ﷻ لم يزل يخلق ما يشاء ﷻ.

وافتري على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنه يقول بكلام الفلاسفة، وهذا من الظلم والعدوان؛ فشيخ الإسلام رحمه الله بَيّن طريقة السلف وطريقة أهل الحديث، ومذهبهم غير مذهب الفلاسفة، فالفلاسفة يقولون: بِقِدَم الحوادث وقِدَم العالم بمعنى أن هذا العالم المعين لم يكن عدمًا فأوجده الله ﷻ، وهذا ضلال وانحراف؛ لأنهم نفوا أن يكون الله تعالى مُوجِداً لهذا العالم، يقولون: هو العالم نفسه قديم ليس له أول، ولم يكن عدمًا في وقت من الأوقات.

لكن على طريقة السلف وأهل الحديث: إن هذا العالم الموجود كان عدَمًا، وكل مخلوق من المخلوقات كان عدمًا في وقت من الأوقات ثم أوجده الله ﷻ.

فهل هذا يُعارِض أن الله ﷻ هو الأول الذي ليس قبله شيء؟

لا يعارض، بدليل تسلسل الحوادث في المستقبل، فشيخ الإسلام وأهل الحديث يقولون: كما أن الله ﷻ في المستقبل هو الآخر، ليس بعده شيء.

لكن أهل الجنة مُخَلّدون، وأهل النار مُخَلّدون، وخلود فلا موت، فإذا الله ﷻ بَقّى أهل الجنة وكتب لهم البقاء والخلود، لكن بقاؤهم مُستمَد من إبقاء الله تعالى لهم، فليس صفة ذات لهم أنهم غير قابلين للفناء، بل هم قابلون للفناء، ولكن الله ﷻ هو الذي أبقاهم وهم باقون بإبقاء الله ﷻ لهم.

فخلود أهل الجنة في الجنة وخلود أهل النار في النار لا ينافي أن الله ﷻ هو الآخر الذي ليس بعده شيء، فكذلك مسألة أن الله ﷻ لم يزل يخلق ما يشاء ﷻ.

وكذلك أيضًا المخلوق الذي أوجده الله ﷻ فهو موجود بإيجاد الله ﷻ له وأنه كان مسبوقًا بعدم ثم أوجده الله ﷻ.

فأي مخلوق معين كان عدمًا وأوجده الله ﷻ في وقت، لكن جنس المخلوقات عمومًا لم يزل الله ﷻ يخلق ما يشاء ولم يكن مُعَطّلاً عن الخلق والإيجاد في وقت من الأوقات، بل ﷻ لم يزل يخلق، وهذا لا يُعارِض أوّليته ﷻ، لأنه ﷻ الأول الذي لم يُسبَق بعدم ولا مُوجِد له، لكن أي مخلوق ليس له أولية مطلقة لأنه كان عدمًا وله مُوجِد أوجده، ووجوده بإيجاد الله ﷻ له، فتبقى صفة الله ﷻ ثابتةً لله ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشورى:١١].

قال: (**ولا يبلغ كُنْه صفته الواصفون**)؛ (كُنْه الصفة): يعني كيفيتها وحقيقتها.

صفات الله سبحانه لا يستطيع الواصفون أن يعلموا حقيقتها وكيفيتها، فهذا

مما استأثر الله تعالى به، لكن نعلم معنى الصفة، أما حقيقتها وكيفيتها فهذا مما استأثر الله تعالى به.

فنفهم معنى السمع ومعنى البصر، وأن الله تعالى سميع وبصير، وأن الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا، وأنه استوى على عرشه ﷻ، لأن صفات الله ﷻ في القرآن بلسان عربي مبين، لكن كيف ينزل، كيف يستوي على عرشه، كيف يسمع، كيف يُبصر؟ لا نعلم كيفية ذلك، فصفاته على ما يليق بالله ﷻ، نؤمن أن سَمْع الله ليس كسمع المخلوق، ولا بصره كبصر المخلوق، واستواؤه ليس كاستواء المخلوق، وأن جميع صفته على ما يليق به ﷻ، وليس كصفة المخلوق.

فهناك القدر المشترك في معنى الصفة بين الخالق والمخلوق، الذي يُفهَم به أصل معنى الصفة، لكن حقيقتها وكيفيتها في حق الله ﷻ؛ فهذا على ما يليق به ﷻ، ليس مثل صفة المخلوق.

وحتى المخلوقات، فالله ﷻ فاضل بينها في الصفات مع كونها جميعًا مخلوقةً، فكل مخلوق له سَمْع يليق به، وسمع الإنسان من أضعف المخلوقات، يوجد من أصناف المخلوقات ما له قوة سَمْع أضعاف حال الإنسان، وقوة إبصار أضعاف حال الإنسان، وغير ذلك من الأمور.

فهناك القدر المشترك الذي نعلم به أصل معنى الصفة، لكن حقيقتها وكيفيتها على ما يليق بالله ﷻ، لا يُشبه صفة المخلوق.

قال: (**ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المتفكرون بآياته ولا يتفكرون في ماهية ذاته**) التفكر لا يكون في ذات الله ﷻ، وإنما التفكر في آيات الله ﷻ

الكونية والشرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١] .

فآيات الله الكونية: هي المخلوقات والموجودات، ونستدل بها على قدرة الله تعالى وعظمته ووحدانيته.

وآيات الله الشرعية: هي آيات القرآن الكريم، وتَدَبُّر القرآن الكريم وفَهْم معانيه.

فهذا هو التفكر المشروع.

أمّا التفكر في ذات الله ﷻ، وبُغية معرفة حقيقة صفته وكُنْه صفته: فهذا لا يستطيعه عقل الإنسان، ولا يُدركه، وليس مطلوبـًا.

ومهما حاول مُتفكر أن يتفكر في ذات الله ﷻ فلن يحيط به ﷻ، ولله تعالى المثل الأعلى.

الله ﷻ أعطى كل حاسة من حواس الإنسان قدرة معينة، فالسمع له حد معين، الصوت إذا ضعُف عن شيء معين لا يستطيع أن يسمعه، إذا زاد عن شيء معين لا يستطيع أن يسمعه، والبصر كذلك؛ الشيء إذا قَرُب جداً أو صَغُر جداً لا يستطيع أن يراه، إذا بَعُد جداً لا يستطيع أن يراه، إذا حجز حاجز أو حاجب لا يستطيع أن يراه، وهكذا في كل أحوال الإنسان.

وكذلك عقل الإنسان له حَدّ معين لا يستطيع أن يتجاوزه، له بدايات ونهايات، له بدايات لا يستطيع العقل أن يستدل عليها، كالحسّيات والبدهيات، فأنت عندما

تستدل تأتي بقوانين وبراهين ومقدمات، إلى أن تصل لحد بدهي، يُستدل بها ولكن لا يُستدَل عليها.

لأن الذي يُنكر البدهيات يدخل في السفسطة، وإنكار الحسّيات لا يُستطاع البرهنة عليها، مثلا: الجدار لونه أصفر، فلو جاء شخص وقال لك: لا، هو أحمر مثلاً، اَثْبِت لي أنه أصفر.

الإثبات أنك تراه أصفر، ولن تستطيع أن تستدل على هذا.

فالعقل له بداية تستطيع أن تبدأ منه، وله نهاية أيضـًا، ومهما حاول الإنسان أن يستعمل عقله في التوصل إلى حقيقة صفات الله ﷻ وكيفيتها لا يستطيع عقله أن يصل إلى ذلك حتى لو حاول، فهذا شيء خارج عن حدوده.

قال: (**ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**) أي لا يطلع أحد على شيء من علم الله ﷻ إلا بما شاء الله ﷻ أن يُطلِع بعض خَلقه عليه، فلا أحد يستطيع أن يعلم علمـًا لم يأذن الله ﷻ له أن يعلمه.

وهذا معنى قول الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾[البقرة:٣٢] .

قال: **وَسِعَ كُرْسِيُّه السَّموات والأرض، ولا يؤُودُه حفظُهما وهو العليُّ العَظيم.**

كرسي الله:

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: أَيُّ آيَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ عَلَيْكَ أَعْظَمُ؟، قَالَ: «آيَةُ الْكُرْسِيِّ» ، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى**

تِلْكَ الْحَلَقَةِ»[١].

وعن ابن عباس ﷺ، قال: «الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يُقَدِّرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ»[٢].

وعن الحسن البصري أن كرسي الله تعالى هو عرشه، ولكن الإسناد ضعيف، قال ابن كثير: « روى ابن جرير من طريق جويبر وهو ضعيف عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش. وهذا لا يصح عن الحسن بل الصحيح عنه وعن غيره من الصحابة والتابعين أن الكرسي غير العرش» [٣].

فالكرسي قد يأتي بمعنى العرش في بعض التفاسير.

وتفسير ثالث أن الكرسي هو علم الله تعالى، وورد بذلك أثر عن ابن عباس ولكنه ضعيف[٤]. وبه قال الطبري.

﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ لا يثقل عليه حِفْظ السموات والأرض، فحِفْظ السموات والأرض يسير على الله ﷻ.

---

[١] أخرجه: ابن أبي شيبة في كتاب العرش رقم (٥٨) . وابن حبان في صحيحه (١/ ٧٦-٧٩) . وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٦٤٨-٦٤٩، ح٢٥٩) . وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦) . والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٠-٣٠١، ح٨٦٢) . وقال الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (رقم ١٠٩) - بعد أن سرد الطرق لهذا الحديث-: «وجملة القول أن الحديث بهذه الطرق صحيح، والحديث خرج مخرج التفسير لقوله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ} ، وهو صريح في أن الكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش، وأنه جرم قائم بنفسه، وليس شيئا معنويا، وفيه رد على من يتأوله بمعنى الملك وسعة السلطان».

[٢] أخرجه ابن خزيمة في التوحيد ١ / ٢٤٨، والحاكم في المستدرك ٣١١٦.

[٣] البداية النهاية ١/ ٢٣.

[٤] ومداره على جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه، قال الدارمي: «هو من رواية جعفر الأحمر، وليس جعفر ممن يعتمد على روايته إذ قد خالفه الرواة المتقنون».وقال ابن منده: "لم يتابع عليه جعفر، وليس هو بالقوي في سعيد بن جبير".

العالِمُ الخبيرُ، المُدَبِّرُ القَدِيرُ، السَّمِيعُ البصيرُ، العَلِيُّ الكَبيرُ، وَأَنَّه فوقَ عَرشه المجيد بذاته، وهو في كلِّ مكان بعِلمه.

يثني على الله ﷻ ببعض أسمائه وصفاته:

فهو ﷻ العالم العليم بكل شيء.

قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾[الأنعام:٧٣].

وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾[الأنعام:٥٩] .

والخبير: أخص من العالم، فهو العالم بدقائق الأمور وخفاياها.

والمدبر: من التدبير، وهو تصريف الشيء وتصريف أَمْره، فهو ﷻ المدبر لأمر خَلقه ﷻ، يُصَرِّف شؤونهم وَفْق مشيئته وحكمته ﷻ.

والقدير: الذي لا يُعجزه شيء ﷻ، ولا يعجز عن شيء ﷻ.

وهو السميع: وسع سمعه الأصوات، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، تَشْكُو زَوْجَهَا، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾[المجادلة:١] [١].

وهو البصير ﷻ: الذي يرى عباده، ويرى أعمالهم وأحوالهم ولا يخفى عليه شيء من أمرهم ﷻ.

---

[١] أخرجه ابن ماجه ١٨٨ بسند صحيح.

وهو **العلي:**

والعلو: عند السلف الصالح يشمل عُلو الذات، وعُلو القهر، وعُلو الشأن، فهو ﷻ عليٌّ بذاته ﷻ، مستوٍ على عرشه.

وهو ﷻ عليٌّ بقهره: أمره نافذ، لا يغلبه شيء ولا يستطيع أحد أن يخرج عن حُكمه ﷻ.

وله عُلو الشأن والمنزلة والقدر.

وهو **الكبير:** فهو أكبر من كل شيء، وأي مخلوق فالله ﷻ أكبر منه ﷻ.

قال: (**وأنه فوق عرشِه المجيدِ بذاته**) ﷻ.

يثبت استواء الله ﷻ على عرشه، وفوقية الله ﷻ، وأنه ﷻ فوق عرشه المجيد بذاته ﷻ.

والإمام ابن أبي زيد رحمه الله تعالى استعمل هذه اللفظة (بذاته)، وقد وردت في كلام السلف كثيرا رَدّاً على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم الذين حصروا الفوقية في فوقية الشأن والقهر؛ وأنكروا فوقية الذات، ويزعمون أن الله في كل مكان -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-.

فمن مزايا هذا الكتاب للإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله -وهو من علماء القرن الرابع الهجري، قبل ابن تيمية، وقبل ابن عبد الوهاب، وقبل غيره- أن فيه ردًا على الذين يزعمون أن ابن تيمية هو الذي أحدث هذه الأقوال .

فهذا إمام فقيه مالكي قبل ابن تيمية بقرون ويثبت فوقية الله ﷻ فوق عرشه بذاته

ﷺ، وهو شيخ المالكية في زمانه، وإمام المالكية في عصره، وهذا ليس منفرداً به، بل هكذا المتقدمون من أئمة المسلمين من جميع المذاهب المتبوعة كلهم يثبتون علو الله ﷻ، ويثبتون فوقيته.

وللأسف بعض شُرّاح مقدمة ابن أبي زيد من الأشاعرة حرفوا الكلام، فوضعوا فاصلة بعد كلمة عرشه، ليوهم القارئ أن جملة (المجيد بذاته) جملة أخري غير متعلقة بما قبلها.

ولكن، دائمًا الذي يريد أن يُحَرّف لا يستطيع أن يُحَرِّف بقية الكلام، فبقية الكلام والسياق يَرُد عليهم، لأنه قال بعدها: (**وهو في كل مكان بعلمه**) فيتأكد من سياق الكلام أن ذات الله فوق العرش، وأن علم الله في كل مكان.

وسيأتي أيضا تأكيد ذلك عند تفرقته بين العرش وبين المُلك.

(**وهو في كل مكان بعلمه**) علم الله ﷻ في كل مكان لا يخفى عليه شيء.

ولهذا لما استدلت الجهمية بقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾[المجادلة: ٧] فقالوا: إن الله معنا وفينا.

قال الإمام أحمد: «الله جل ثناؤه يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعني الله بعلمه، ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ يعني الله بعلمه ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعني بعلمه فيهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾[المجادلة: ٧] يفتح الخبر بعلمه، ويختم الخبر بعلمه»[١].

---

[١] الرد على الجهمية والزنادقة، للإمام أحمد، ص ١٥٤.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٤]. أي معكم ببصره، فهو معهم بعلمه وسْمعه وبصره، يراهم وهو مستوٍ على عرشه ﷻ.

ولذلك لا تجد نَصّاً في المعية العامة إلا وتجده إمّا فيه العلم وإمّا فيه السمع وإمّا فيه البصر، مما يدل على أن المعية بعلمه وسَمْعه وبصره ﷻ.

خَلَقَ الإنسانَ ويَعلمُ ما تُوَسْوِسُ به نفسُه، وهو أَقربُ إليهِ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ، وما تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعلَمُها، ولاَ حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرضِ ولاَ رَطْبٍ ولاَ يَابِسٍ إلاَّ في كِتَابٍ مُبينٍ.

(**خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه**) ما تُحَدّث به النَّفْس صاحبها فالله ﷻ يعلم ذلك.

(**وهو أقرب إليه من حبل الوريد**).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦].

قال القرطبي: « هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال. روي معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف في اللغة. والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين. وقال الحسن: الوريد الوتين وهو عرق معلق بالقلب» [١].

وقد فسر القرب بتفسيرين:

الأول: هو قرب الله بعلمه.

الثاني: هو قرب الملائكة.

قال ابن كثير: « ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد،

---

[١] تفسير القرطبي ١٧/ ٩.

وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦]، كما قال في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعني ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: ٩] فالملائكة نزلت بالذكر -وهو القرآن-بإذن الله. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك»[١].

قال: (**وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين**) علم الله ﷻ شامل لكل شيء، فمما يعلمه الله ﷻ عدد الأوراق وما يسقط من أوراق الشجر، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾[الأنعام: ٥٩]

والآيات هنا تفيد إثبات العلم لله ﷻ، وإثبات الكتابة أيضاً، فكل هذا يعلمه الله ﷻ، وهو مكتوب عنده ﷻ في كتابٍ مبين وهو اللوح المحفوظ.

والمبين: أي بَيّن وواضح وجَلِيّ.

---

[١] تفسير ابن كثير ٧ / ٣٩٨.

على العَرشِ اسْتَوى، وعَلى المُلْكِ احْتَوى، وله الأسماء الحُسنى والصِّفاتُ العُلَى.

لَمْ يَزَل بِجَميعِ صفاتِه وأسمائِه، تَعالى أن تكونَ صفاتُه مَخلوقَةً، وأسماؤُه مُحْدَثَةً.

يقرر عقيدة أهل السنة باستواء الله على عرشه، ويفرق بين الاستواء وبين المُلك؛ لأن الأشاعرة يجعلون الاستواء على العرش بمعنى التملك، ويستشهدون بالبيت المنحول، المنسوب زوراً إلى الأخطل:

قد استوى بشرٌ على العراق من غير سيف و دم مهراق

فيقولون: استوى بمعنى استولى، أي مَلَك أو حاز، وهذا باطل.

لأن الاستواء يُستفاد من قوله تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف:١٣] فالسلف فسروا (استوى) بمعنى: علا، وصعد، واستقر، وارتفع.

وأمّا الْملك والاستيلاء، فإذا فسرنا (استوى) بمعنى (مَلَك) فهذا ليس خاصاً بالعرش، فالله ﷻ يملك السموات ويملك الأرض ويملك كل شيء، فيجوز أن يقال: إن الله استوى على كل المخلوقات، وهذا لا يجوز، وهم لا يُسَلّمون بذلك؛ فدلّ على أن الاستواء غير الْملك.

ثم كلامهم هذا بلا مستند من أثر أو لغة، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي:

" صَرْفُ آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان، كقولهم "استوى" بمعنى "استولى"، فهذا لا يدخل في اسم التأويل، لأنه لا دليل يدل عليه ألبتة. وإنما يسمى في اصطلاح أهل الأصول: لعبًا، لأنه تلاعب بكتاب الله جل وعلا من غير دليل ولا مستند. فهذا النوع لا يجوز؛ لأنه تهجُّم على كلام رب العالمين. والقاعدة المعروفة عند علماء السلف: أنه لا يجوز صرف شيء من كتاب الله، ولا سنة رسوله، عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه" [١].

وقال العلامة العثيمين: «وقد فسر أهل التعطيل الاستواء: بالاستيلاء. فقالوا في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: استولى عليه -تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا- ونرد عليهم: بأن قولهم هذا خلاف ظاهر النصوص وخلاف طريقة السلف، وليس عليه دليل صحيح، وأنه لا يعرف في اللغة العربية بهذا المعنى، وأنه يلزم عليه لوازم باطلة مثل: أن العرش لم يكن ملكًا لله، ثم استولى عليه بعد -سبحان الله عما يصفون-» [٢].

فالسلف لما قالوا: استوى، ما قالوا: استواء كاستواء المخلوق، وإنما قالوا: استوى استواءً يليق بكماله ﷻ، فليس كمثله شيء.

وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم ذكروا بطلان تفسير استوى بـ (استولى) من تسعين وجهًا.

---

[١] منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، ص ١٠٩.

[٢] شرح لمعة الاعتقاد.

قال العلامة الشنقيطي: " نحن نسألك ونطلب منك الجواب بإنصاف: أيهما أحق بالتنزيه عن مشابهة الخلق؛ الاستواء الذي مَدَح الله به نفسه في محكم كتابه وهو نفس القرآن الذي يُتْلى، ولتاليه بكل حرف منه عشر حسنات لأنه كلام الله، أم الأحق بالتنزيه هو الاستيلاء الذي جئتم به من تلقاء أنفسكم من غير استناد إلى وحي؟"[١] .

قال: (**وعلى الملك احتوى**) كل ما سوى الله ﷻ فهو مملوك لله ﷻ.

وبالنسبة للمخلوق: فيثبت له مِلْك عارض، أي تَمَلُّك المخلوق لشيء هو بتمليك الله ﷻ إياه، ويكون مُلكًا عارضًا، أي يزول عنه، وزوال المملوك عن الإنسان إما بموته، وإما بافتقاره.

من صفات الإنسان الفقر في ذاته، والله سبحانه هو الغني بذاته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر:١٥] ، فمهما تملك الإنسان فهو فقير، وغنى الله ﷻ ليس لأنه يملك السموات والأرض وما بينهما، وإنما لغناه عن العالمين، ليس محتاجًا للسماوات ولا للأرض ولا للبشر ولا لغير ذلك، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾[إبراهيم: ١٩-٢٠].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ،**

[١] منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، ص ١٢٢.

فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[١].

قال: (**وله الأسماء الحسنى والصفات العلى**) من عقيدة أهل السُّنة: إثبات ما أثبته الله ﷻ لنفسه من الأسماء والصفات.

وأسماء الله ﷻ لا يعلم عددها إلا هو ﷻ، عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا»[٢].

---

[١] أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

[٢] أخرجه أحمد في مسنده ٣٧١٢، وصححه الألباني في الصحيحة ١٩٩.

فدلّ هذا على أن أسماء الله ﷻ منها: ما أنزله في كتبه، ومنها: ما استأثر به في علم الغيب عنده، ومنها ما عَلّمه الله تعالى لبعض خَلْقه دون بعض.

فإذاً كيف نفهم حديث النبي ﷺ: «**إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا، مَنْ أحصاها دخل الجنة**»[١]؟

قال العلماء: المعنى أن من بين أسمائه تسعة وتسعين اسمًا لها هذه الخاصية، أن مَنْ أحصاها دخل الجنة، وهذا لا يعني أن أسماء الله منحصرة في التسعة والتسعين.

فلو قال شخص: «عندي ألف درهم أرصدتها لكذا» فليس معناه أنه ليس عنده سوى هذه الألف، ولكن عنده ألف درهم من بين دراهم أخرى، ولكن لتلك الألف مزية معينة، وحُكم خاص بها.

ما هي هذه الأسماء التسعة والتسعون؟

بعض شراح الحديث يقول: أي تسعة وتسعين اسمًا ثبتت لله تعالى في الكتاب أو السُّنة، فمَنْ أحصى تسعة وتسعين اسمًا ثابتة في الكتاب والسُّنة دخل الجنة.

والبعض يقول: هي تسعة وتسعون اسمًا من بين الأسماء التي أطلعنا الله تعالى عليها في كتابه الكريم وفي سُنّة النبي ﷺ، فمَنْ أراد الظَّفَر بها فعليه أن يجمع الأسماء الواردة لأنها ستكون من بين هذه الأسماء، واجتهد كثير من أئمة السلف في إحصاء تسعة وتسعين اسمًا من أسماء الله تعالى.

---

[١] أخرجه البخاري ٢٧٣٦، ومسلم ٢٦٧٧ عن أبي هريرة.

وأما الحديث الذي فيه عدُّ الأسماء، فقد قال شُرّاح الحديث: إنه مُدرَج، أي ليس من كلام النبي ﷺ، وإنما من كلام الوليد بن مسلم رحمه الله - أحد رجال السند من أئمة الحديث- .

ولذلك فرواية الصحيحين «**إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا، مَنْ أحصاها دخل الجنة**» فقط، وانتهى الحديث.

لكن الرواية التي فيها: «الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن.» إلى آخره؛ فهذا مُدرَج في الحديث من كلام الراوي.

وليس معنى هذا أن نرفض هذه الأسماء، فهذه الأسماء المدرجة من كلام بعض أئمة السلف الذين اجتهدوا في استنباطها، فلا مانع من إيرادها والانتفاع بها .

لكن القصد هنا: أنه لا يلزم انحصار الأسماء في هذه الأسماء المعينة، فقد يَرِد في بعض الأحاديث الصحيحة أسماء أخرى غير مذكورة فيها.

فمثلاً: قال تعالى ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾[العلق:٣]، نجد أنه ليس فيها اسم (الأكرم).

ولا يلزم أن تكون الأسماء كلها أسماء مفردة، قد تكون أسماء مركبة، فتجد فيها (مالك الملك) أو (ذو الجلال والإكرام)، أو (عالم الغيب والشهادة) أو (رب السموات والأرض).

ولذلك فأهل العلم اختلفوا كثيراً؛ الإمام الحافظ ابن حجر استخرج أسماء، والشيخ ابن عثيمين استخرج أسماء، وقبلهم من السلف جعفر الصادق.

وكل إمام يجتهد في استخراج بعض الأسماء من الكتاب والسُّنة.

والقصد: أن مَنْ اجتهد بطريقة صحيحة واستخرج أسماء من القرآن الكريم ومن الأحاديث الثابتة المقبولة -سواء كانت أسماء مفردة أو مركبة- فاجتهاده محترم، لكن لا نجزم أن هذه هي بعينها، بل نقول: هذه من أسماء الله ﷻ، ولا تنحصر الأسماء فيها.

ومن أسمائه ﷻ الاسم الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب ﷻ، كما ورد في الحديث.

والاسم الأعظم أيضًا ورد فيه اختلاف، بعضهم قال: هو الحي القيوم، أي مُرَكّب من هذين الاسمين.

وبعضهم قال: هو مُرَكّب من كلمة التوحيد مع الحي القيوم.

وبعضهم قال: من كلمة التوحيد في مع ما ورد في سورة الإخلاص، عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»[١].

وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « **اسْمُ اللهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾** [البقرة:١٦٣] **وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾** [آل عمران: ٢]»[٢].

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: « **إِنَّ اسْمَ اللهِ الْأَعْظَمَ لَفِي**

---

[١] أخرجه أحمد في مسنده ٢٣٠٤١، بإسناد صحيح.

[٢] أخرجه أبو داود ١٤٩٦، بسند حسن.

ثَلَاثِ سُوَرٍ مِنَ الْقُرْآنِ: فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطَهَ».

قال الْقَاسِم أبو عبد الرحمن: فَالْتَمَسْتُهَا فَوَجَدْتُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[آل عمران: ٢]، وَفِي سُورَةِ طَهَ: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ﴾[طه: ١١١].[١]

وهذا ما رجحه ابن القيم، فقال: « صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة القيومية متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى هو اسم الحي القيوم، والحياة التامة تضاد جميع الأسقام والآلام، ولهذا لما كملت حياة أهل الجنة؛ لم يلحقهم هم ولا غم ولا حزن ولا شيء من الآفات، ونقصان الحياة يضر بالأفعال وينافي القيومية؛ فكمال القيومية لكمال الحياة؛ فالحي المطلق التام لا يفوته صفة الكمال البتة، والقيوم لا يتعذر عليه فعل ممكن البتة» [٢].

الإلحاد في أسماء الله تعالى:

حذّر الله تعالى من الإلحاد في أسمائه، فقال: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ﴾[الأعراف:١٨٠] .

والإلحاد في أسماء الله يشمل أنواعًا وأصنافًا؛ منها نَفْي الأسماء الحسنى عن الله، وإثبات أسماء لله لم يُسمِّ بها نفسه، كالنصارى يسمون الله تعالى «الآب».

---

[١] أخرجه الحاكم في المستدرك، وصححه الألباني في الصحيحة ٧٤٦.

[٢] الطب النبوي ١٥٩.

ومن الإلحاد نفي ما دلّت عليه الأسماء الحسنى من الصفات، لأن أسماء الله تعالى لو كانت مجرد ألفاظ لا معنى لها لَمَا وصفها الله تعالى بأنها الحسنى.

فمذهب السلف الصالح: أن أسماء الله ﷻ تتضمن وَصْف الله تعالى بما فيها من الصفات، فاسمه (العليم) معناه أنه من صفته (العلم).

وهذا غير طريقة المعتزلة الذين يزعمون أن أسماء الله ﷻ مثل أسماء المخلوقين لا تدل على وصف، فالمخلوق قد يُسمى (كريمًا) وهو بخيل، أو (عادلاً) وهو ظالم.

فزعموا أن الله سميع بلا سَمْع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فالعَلَمية لا يلزم منها الوصفية في أسماء البشر، فكون الاسم عَلَمًا على الشخص فليس معناه أن تصفه بما في الاسم من الصفة.

لكن أسماء الله ﷻ أعلام وصفات:

فـ (العليم) اسم دال على الله، ومتضمن صفة العلم.

فالاسم الذي اشتُقت منه الصفة نثبته، وكذلك ما يلزم أيضًا من الصفات نثبته لله ﷻ.

ومن الإلحاد تسمية المعبودات الباطلة بأسماء مشتقة من أسماء الله تعالى كما فعل مشركو العرب في الجاهلية، سموا معبوداتهم اللات والعُزّى ومناة، اشتقوا من اسمه تعالى (الله) اللات، واشتقوا من العزيز العزى، واشتقوا من المنان مناة.

أيضا، أسماء الله توقيفية، لا مجال للعقل ولا للاجتهاد فيها، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾[مريم: ٦٥] وعقيدة السلف أن الله تعالى هو الذي سمى نفسه، لم يُسمّه خَلق، بخلاف المعتزلة الذين يزعمون أن البشر هم الذين سموا الله تعالى بهذه الأسماء.

والله ﷻ عاب آلهة المشركين قال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ [النجم:٢٣] فآلهة المشركين هم سموها هم وآباؤهم، فكان هذا عيبًا لها، ونَفْيًا لألوهيتها، فكيف يكون إلهًا وهو مفتقر في تسميته إلى غيره.

قال: **لَم يَزَل بِجَميعِ صفاتِه وأسمائِه، تَعالى أن تكونَ صفاتُه مَخلوقَةً، وأسماؤُه مُحْدَثَةً.**

(لم يزل) إثبات أن صفات الله وأسماءه قديمة ﷻ، ليست مُحدثة، فلم يكن في وقت مُعطّلاً ثم اتصف أو تسمى.

كلَّم موسى بكلامِه الَّذي هو صفةُ ذاتِه لا خَلْقٌ مِن خَلقِه، وَتَجَلَّى للجَبَل فصار دكًّا مِن جلالِه.

وأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، ليس بمخلُوقٍ فيَبِيدُ، ولا صفة لمخلوقٍ فَيَنْفَدُ.

يثبت صفة الكلام لله، وأن الله ﷻ تكلم، وكلم موسى تكليماً، كما قال ﷻ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[النساء:١٦٤] .

والكلام صفة ذات لله ﷻ، والله لم يزل متكلماً بما شاء ﷻ.

وكلام الله ليس مخلوقاً من المخلوقات كما زعم أهل البدع، فمنهم مَنْ يقول: إن الله ﷻ لم يكلم موسى حقيقة، وإنما خلق الكلام في الشجرة، وتكلمت به .

بل كلام الله صفة من صفاته، والشأن في الصفات كالشأن في ذات الله ﷻ، فكما أن ذات الله ﷻ ليست مخلوقة، فصفات الله ﷻ كذلك ليست مخلوقة.

وعقيدة أهل السنة أن كلام الله ﷻ قديم النوع حادِث الآحاد.

وحادث ليس معناها مخلوق، بل **الحدوث**: أي أن الكلمة المعينة تكلم الله ﷻ بها في وقتٍ معين.

فالكلام الذي سمعه موسى عليه السلام من الله ﷻ، تكلم الله ﷻ به في ذلك الوقت فسمعه موسى عليه السلام، والكلام الذي سيكلم الله تعالى به عباده يوم القيامة فسيتكلم الله تعالى بهذه الكلمة المعينة في ذلك الوقت المعين في يوم القيامة، وكل يوم جمعة في الجنة يكلم الله تعالى المؤمنين ويكلمونه، وفي غير

ذلك مما شاء الله ﷻ أن يتكلم به ﷻ.

وتكلم الله تعالى بالقرآن الكريم، ويسمعه جبريل من رب العالمين ﷻ، وينزل ويتلوه على النبي ﷺ، فالله تعالى يُكلم جبريل بالأمر، وينزل يكلم به النبي ﷺ.

وكلّم الله تعالى نبيّنا محمداً ﷺ يوم الإسراء والمعراج، ففي هذا اليوم المخصوص وفي هذا الوقت المخصوص عُرِجَ بالنبي ﷺ فكلّمه الله تعالى وفرض عليه الصلوات الخمس.

ونقول: إن كلام الله قديم، أي أن الله تعالى لم يزل يتكلم ﷻ ولم يكن مُعَطّلاً عن الكلام في وقت من الأوقات.

وكلام الله ﷻ في مذهب السلف الصالح بصوت وحرف.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُنَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: "يَحْشُرُ اللهُ العِبَادَ، فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ"[١].

قال: (**وتَجَلّى للجبل فصار دكاً من جلاله**).

(**وتَجَلّى للجبل**) أي كشف الله سبحانه بعضا من حجابه للجبل.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾[الأعراف: ٣٤١] قَالَ: «قَالَ: هَكَذَا، يَعْنِي أَنَّهُ أَخْرَجَ طَرَفَ الْخِنْصَرِ»[٢]، أي هذا القدر اليسير هو الذي كشفه الله سبحانه من حجابه للجبل (**فصار دكاً**)

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه معلقا، وفي الأدب المفرد ٩٧٠ بسند حسن.

[٢] أخرجه أحمد في مسنده ١٢٢٦٠، بسند حسن.

أي تفتت الجبل وانهار الجبل (**من جلاله**) من عظمة الله ﷻ، وهو يشير إلى الآية الكريمة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

قال: (**وأن القرآن كلام الله**) الدليل على أن القرآن كلام الله هو قوله ﷻ: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾[التوبة:٦] فسمى الله ﷻ القرآن كلامه،وهو صفة من صفاته ﷻ، وصفته غير مخلوقة.

والقرآن ليس مخلوقًا (**فيَبِيد**) أي فيهلِك، ولا هو (**صفة لمخلوق فينفد**) أي ينتهي، كما قال ﷻ: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾[الكهف:١٠٩].

وفي الآية الأخرى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ ﴾[لقمان:٢٧] فإذاً القرآن باقٍ (لا ينفد).

والإيمانُ بالقَدَرِ خَيْرِه وشَرِّه، حُلْوِه ومُرِّه، وكلُّ ذلك قَد قَدَّرَهُ اللهُ ربُّنا، ومقاديرُ الأمورِ بيدِه، ومصدرُها عن قضائِه.

الإيمان بالقدر: هو ركن من أركان الإيمان الستة المذكورة في حديث جبريل عليه السلام لَمّا سأل النبي ﷺ: «ما الإيمان؟» قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»[١].

والقدر في اللغة: هو الإحاطة بمقدار الشيء.

وفي الشرع: هو علم الله ﷻ بمقادير الخلائق وكتابته لها، ومشيئته إياها، وخَلْقه إياها.

والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأربعة أشياء؛ يقال لها: (مراتب الإيمان بالقدر)، وهي:

مرتبة العلم.

ومرتبة الكتابة.

ومرتبة المشيئة.

ومرتبة الخَلْق.

فكل ما في هذا الكون من خير وشر، قد علمه الله وكتبه وشاءه وخَلَقه.

---

[١] أخرجه مسلم ٨ عن عمر، والبخاري ٥٠، ومسلم ٩ عن أبي هريرة.

وقوله: (**خيره وشره**) ورد في حديث جبريل: «**وأن تؤمن بالقدر خيره وشره**».

وقوله: (**حلوه ومُرّه**) وردت في رواية لحديث عمر عند النسائي في الكبرى والبيهقي وابن حبان.

والقدر لا شر فيه بوجه من الوجوه فإنه علم الله وقدرته وكتابه ومشيئته وذلك خير محض، فالشر ليس إلى الرب تعالى بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله.

وإنما يكون الشر في المقضي المقدر، ويكون خيرا من وجه، وشرًا من وجه.

مثال ذلك: القصاص، فإن قطع يد السارق شر مؤلم ضار له، وأما قضاء الرب ذلك وتقديره عليه فعدل وخير وحفظ للحقوق وكفارة للسارق[١].

وكقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢١٦].

ما الفرق بين كون القدر خيرا وشرا وكونه حلوا ومرا؟

الحلاوة والمرارة باعتبار البدايات، ومباشرة الأسباب في العاجل، ففي أول الأمر عندما يباشر الإنسان الأسباب فالقدر منه ما هو حلو ومنه ما هو مر، وهو خير وشر باعتبار النهايات والعواقب، فالقدر يؤول إلى خير أو يؤول إلى شر، فقد يكون الشيء حلواً في بدايته وقد تكون عاقبته شراً أو عاقبته خيراً، وقد يكون

---

[١] راجع: «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر» لابن القيم.

حلواً سهلاً تشتهيه النفس وتميل إليه وترتاح إليه، وقد يكون عاقبته حميدة أو غير حميدة.

والشيء الذي يكون في بدايته مُرّاً وثقيلاً على النفس وفيه صعوبة وفيه مشقة وفيه تعب، وقد تكون عاقبته حميدة وقد تكون عاقبته سيئة.

فهو باعتبار البدايات منه الحلو والمر، وباعتبار العواقب والنهايات منه الخير والشر.

قال: (**وكلُّ ذلك قَد قَدَّرَهُ اللهُ رَبُّنا، ومقاديرُ الأمورِ بيدِه، ومَصدَرُها عن قضائِه**).

(**ومصدرها**) أي وصدورها (**عن قضائه**) بقضاء الله ﷻ.

ما الفرق بين القضاء والقدر؟

هناك أقوال في هذه المسألة:

فقيل: هما مترادفان؛ وهذا قول أكثر أهل العلم.

وقيل: القضاء هو ما حصل، ونفذ من المقادير، **والقدر** هو ما أراد الله ﷻ أن يكون، أي أنه ﷻ قَدّر ما هو كائن إلى يوم القيامة، فإذا أوجده أصبح حينئذٍ مقضيًا.

وهذا قول جماعة من الأئمة؛ منهم: الإمام ابن بطّال رحمه الله من أئمة المالكية، ومن المتأخرين: الشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

وهناك قول ثالث؛ وهو عكس هذا القول بالضبط، قالوا: القضاء هو ما قضى الله تعالى أن يوجده، فإذا أوجده صار قَدَراً، وهذا قول الإمام الجُرْجاني.

وهناك قول رابع؛ وهو الذي اختاره الحافظ ابن حجر رحمه الله وآخرون: فقال:

القضاء: هو الحُكم بالكليات على سبيل الإجمال.

والقدر: هو الحُكم بوقوع الجزئيات لتلك الكليات على سبيل التفصيل.

مثال ذلك: الله سبحانه أراد إيجاد صنف الإنسان، ثم كل إنسان على حِدّة، فهذا يكون جزئيـًا بالنسبة لِمَا قبله.

أو أراد الله تعالى أن يكون هذا الإنسان من السعداء، فعلى سبيل الإجمال يكون هذا قضاءً، ثم عندما يُقَدّر له فِعْل كذا وفِعْل كذا من جزئيات أفعاله فيكون القدر هو الحكم بوقوع الجزئيات.

وهذه كلها اجتهادات لأهل العلم في محاولة تبيين المراد بالقضاء وبالقَدَر.

لكن أكثر أهل العلم قالوا: القضاء هو القدر، والقدر هو القضاء.

عَلِمَ كلَّ شيْءٍ قَبل كَونِه، فجَرَى على قَدَرِه، لا يكون مِن عبادِه قَولٌ ولا عَمَلٌ إلاَّ وقدْ قَضَاهُ وسبق عِلْمُه به، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

يشير إلى أول مرتبة من مراتب القدر، وكما سبق، فمراتب الإيمان بالقدر أربعة، أولها العلم.

ومرتبة العلم: هي الإيمان أن الله ﷻ يعلم ما كان، ويعلم ما سيكون في المستقبل، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون؛ كعلم الله تعالى أن الغلام الذي قتله الخضر لو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكُفراً، وعلمه سبحانه بأن الكفار يتمنون يوم القيامة الرجوع إلى الدنيا فيقول سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨] فهو ﷻ يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، فهم لن يُرَدّوا إلى الدنيا، ولكن الله تعالى يعلم أنهم لو رُدّوا لعادوا للكفر مرة أخرى.

ثم ذكر دليلاً على مرتبة العلم، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤].

ويدل على عموم علمه ﷻ، وأن علمه شامل لكل معلوم قوله ﷻ: ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:٧٥] فيشمل كل شيء.

المرتبة الثانية: **مرتبة الكتابة؛** وقد مَرّ ذِكْرها لَمّا استشهد بالآية الكريمة: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩] فكل شيء كتبه الله ﷻ عنده في اللوح المحفوظ قبل خَلْق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ: قال، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: **"إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ "** [١].

وهذه كتابة يقال لها: **الكتابة العامة.**

وهناك **الكتابة الحولية:** وهي كتابة مقادير السنة، فيُفصل من اللوح المحفوظ كتاب فيه مقادير الحول في ليلة القدر، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [الدخان: ٣-٥] فالله ﷻ يُنَزِّل في ليلة القدر مقادير السنة.

وورد عن ابن عباس ﷺ قال: حتى أسماء الحُجّاج تنزل في ليلة القدر، وينزل فيها مَنْ يحج هذه السنة، ومَنْ يموت، ومَنْ يولَد، ومَنْ يغتني ويفتقر، ويصح ويمرض، فتنزل مقادير السنة، مكتوبةً إلى بيت العِزّة من السماء الدنيا، من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزّة.

وهناك الكتابة الشخصية: هي المتعلقة بكل شخص على حِدة؛ فعن عَبْد الله ابن مسعود قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ**»[٢].

---

[١] أخرجه أبو داود ٤٧٠٠، وصححه الألباني.

[٢] أخرجه البخاري ٣٢٠٨، ومسلم ٢٦٤٣.

يُضِلُّ مَن يشاء فيَخْذُلُه بعدْلِه، ويَهدي مَن يَشاء فيُوَفِّقُه بفضلِه، فكلٌّ مُيَسَّرٌ بتيْسيره إلى ما سَبَقَ مِن علمه وقَدَرِه، مِن شَقِيٍّ أو سعيدٍ.

هنا يذكر مرتبة المشيئة:

ومعناها: أن نؤمن أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، وإن اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه عليك.

(**فيَخْذُلُه بعدْلِه**) أي خَلّى بينه وبين نفسه، وخَلّى بينه وبين أسباب الضلال، ولم يعصمه منها، ولم يؤيده بِمَدد من عنده فَضَلّ.

(**ويهدي من يشاء**) أي: يُعلّمه الحق ويعينه على سلوكه والعمل به بفضله ﷻ، والفضل بمعنى الزيادة، أي بما يزيده الله تعالى من الخير.

(**فكلٌّ مُيَسّر بتيسيره إلى ما سبق من علمه وقدره**) ما سبق في علم الله تعالى فالإنسان سيعمل به.

تعالَى أن يكونَ في مُلْكِهِ ما لا يُريد، أو يكونَ لأَحَد عنه غِنًى، أو يكون خالقٌ لشيءٍ إلا هو ربُّ العباد وربُّ أعمالِهم، والمُقَدِّرُ لِحَرَكاتِهم وآجالِهم.

لا يكون في مُلك الله ﷻ إلا ما أراد الله ﷻ أن يكون، وهنا يشير إلى إرادة الله تعالى.

إرادة الله تعالى نوعان: الإرادة الشرعية، والإرادة الكونية.

فالإرادة الكونية: هي المشيئة.

والإرادة الشرعية: هي المحبة.

فما أراده الله تعالى كونًا يعني ما شاءه ﷻ.

وما أراده الله تعالى شرعًا يعني ما أحبه ﷻ.

فالإرادة الكونية: هي ما شاء الله ﷻ إيجاده، فتشمل إرادة الله ﷻ أن يهتدي المهتدي، وإرادة الله تعالى أن يكفر الكافر، ويضل الضال.

وأمّا الإرادة الشرعية: فهي أن الله سبحانه تعالى أراد لعباده أن يكونوا تائبين وأن يكونوا مهتدين.

فأوامر الله تعالى ونواهيه الشرعية كالصلاة والزكاة والصوم والصدقة وبر الوالدين؛ هذه إرادة الله الشرعية.

وأمّا الإرادة الكونية: فكل شيء يقع في هذا الكون وسيقع فهو وَفْق إرادة الله

تعالى الكونية.

فالكافر كَفَر بإرادة الله، والمؤمن آمن بإرادة الله ﷻ، لأن الذي يُخْرِج كُفْر الكافر عن إرادة الله؛ فلازم قوله أنه وقع في مُلْك الله ما لا يريد، وهذا قَدْح في ربوبية الله ﷻ، وفي كمال قُدرته وتمام مُلكه ﷻ.

والمؤمن اجتمعت فيه الإرادتان (الكونية والشرعية)، لكونه آمن، فقد وافق إرادة الله الكونية، وإيمانه هذا لكونه شيئًا محبوبًا لله ﷻ فقد وافق إرادته الشرعية أيضًا.

والكافر وُجِدَت فيه الإرادة الكونية، ولكن لم توجد فيه الإرادة الشرعية، لأنه لَمّا كَفَر فهذا شيء قد شاءه الله سبحانه وأراده كونًا، ولكنه خالف إرادة الله الشرعية لأن الله تعالى لا يحب الكفر ولا يرضاه، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[البقرة:٢٠٥] ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[الزمر:٧].

قال: (**ولا يكون لأحد عنه غنى**) لا يمكن لأحد أن يستغني عن الله ﷻ، فالخَلق جميعًا مفتقرون إليه، محتاجون إليه ﷻ.

(**أو يكون خالقاً لكل شيء إلا هو**) تعالى الله أن يكون أحد خالقًا معه ﷻ، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[الأنعام: ١٠٢].

(**رب العباد ورب أعمالهم، والْمُقَدّر لحركاتهم وآجالهم**) يشير إلى مرتبة الخَلْق وهي مرتبة رابعة من مراتب الإيمان بالقضاء والقدر، أن نؤمن أن الله تعالى خالق كل شيء، خلق العباد وأعمالهم، حتى كُفْر الكافر وفِسْق الفاسق فهو من خَلْق الله ﷻ،

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[الصافات:٩٦].

عَنْ حُذَيْفَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنْعَتَهُ**»[١].

قال: (**والْمُقدر لحركاتهم وآجالهم**) الله ﷻ قَدّر حركات العباد، والحركات يشمل جميع أعمال البشر من خير وشر، وطاعة ومعصية؛ كل ذلك من خَلْق الله وتقديره، وهو ﷻ الْمُقَدّر لآجال العباد.

وهذا من معتقد أهل السُّنة أن الله تعالى هو مُقَدّر الآجال - أي العُمُر- قال ﷻ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[فاطر:١١].

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ رَوْحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا**» [٢].

وزعمت المعتزلة أن المقتول قد مات قبل أَجَله، ويزعمون أن هذا هو سبب معاقبة القاتل، ويقولون: لو أن اللحظة التي مات فيها القتيل هي التي قضى الله أن يموت فيها فالقاتل لا يستحق العقاب لأنه كان سيموت على أي حال.

وهذا من الضلال والانحراف، فكل نَفْسٌ قد استوفت أَجَلها وتموت في الأجل الذي قَدّره الله ﷻ لها.

وأمّا عقاب القتال فليس لأنه تسبب في نُقصان عُمر القتيل عن الأجل الذي حدده الله، ولكن لِفِعْله شيئًا حرّمه الله تعالى وانتهاكه حدّاً من حدود الله تعالى.

---

[١] أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١٢٨٦ بسند صحيح.

[٢] أخرجه ابو نعيم في الحلية ١٠ / ٢٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٠٨٥.

كيف نُوفّق بين تقدير الآجال وبين ما ورد في بعض النصوص في مسألة الدعاء بطول العمر؟

فعَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ: اللهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئًا عَنْ حِلِّهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ، كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ**»[١].

عَنْ أُمِّ سُلَيْمٍ، أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَسٌ خَادِمُكَ، ادْعُ اللهَ لَهُ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**»[٢].

فكيف يجمع بين الحديثين:

المعنى هنا أن النبي ﷺ أرشد أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها إلى الأَوْلَى والأحسن من الدعاء بطول العمر هو الدعاء بالنجاة من عذاب القبر والنار، فقد يطول عمر الإنسان ويعصي الله تعالى، ويختم له بشر.

فطول العمر في حد ذاته لا فائدة فيه إلا إذا كان معه صلاح العمل.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ، قَالَ: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**»، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «**مَنْ طَالَ**

---

[١] أخرجه مسلم ٢٦٦٣.

[٢] أخرجه البخاري ٦٣٧٨، مسلم ٢٤٨٠

عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[١].

فطول العمر إذا صاحب سوء العمل فإنه يكون زيادة في الوزر والسيئات،فكلما طال عمره ازداد معصيةً، وصار شر الناس بسبب طول العمر مع سوء العمل.

فكأن النبي ﷺ هنا يُرشد إلى أن يقرن الإنسان الدعاء بطول العمر بدعاء بحُسن العمل، وألا يدعو بطول العمر مجرداً عن الدعاء بحُسْن العمل.

ثم إن دعاء النبي لأنس قد سبقه الخير والبركة، فلفظ مسلم: فَقَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللهِ خُوَيْدِمُكَ ادْعُ اللهَ لَهُ، قَالَ: «فَدَعَا لِي بِكُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ فِي آخِرِ مَا دَعَا لِي بِهِ» أَنْ قَالَ: «**اللهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ**».

وعن أَنَس بْن مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٢].

فكيف إذاً تكون صلة الرحم سبباً في طول العمر إذا كان العمر مُقدراً؟

فالجواب: إن صلة الرحم هي سبب في طول العمر بما يوافق تقدير الله ﷻ، لأن الله سبحانه تعالى يُقَدّر الشيء ويُقَدّر سببه، فالإنسان قد قَدّر الله له أنه إِنْ وَصَل رحمه أن يعيش -مثلاً- خمسين سنة، وإذا لم يصل رحمه سيعيش عشرين سنة.

فهو قُدِّر له عمر إذا لم يصل رحمه، وعمر إذا وصل رحمه.

وقدّر الله تعالى على هذا الشخص أن يصل رحمه ويعيش العمر الأطول،

---

[١] أخرجه الترمذي ٢٣٣٠، وصححه الألباني.

[٢] أخرجه البخاري ٥٩٨٦، ومسلم ٢٥٥٧.

وآخر قدّر الله تعالى عليه أنه يقطع رحمه فيعيش العمر الأقل.

وليس بالضرورة أن الذي يصل رحمه يعيش أكثر مما يعيشه من قطع رحمه- حتى لا يعترض معترض يقول: وجدنا شخصاً يصل رحمه ومات وله خمسون سنة وشخص يقطع رحمه ومات وله تسعون سنة- فنقول: لعل الذي يقطع رحمه عاش تسعين سنة، ولو وصل رحمه لعاش أكثر، وبسبب قطيعة الرحم عاش أقل، فهو كان له عُمران مُقَدّران، وقَضى الله عليه إن وصل عاش الأطول وإن قطع عاش الأقل، ويُقَدّر الله على أنه يصل ويعيش الأطول أو أنه يقطع ويعيش الأقل.

إذاً، فالحديث فيه أن صلة الرحم سبب لطول العمر بما يوافق تقدير الله ﷻ، لا يخرج عن الأجل الذي حدّده الله تعالى وقضاه له.

الباعث الرسل إليهم لإقامة الحجة عليهم

بعد أن ذكر مسألة القدر بيّن أن الله ﷻ بعث الرسل إلى البشر لإقامة الحجة عليهم، فالله ﷻ لن يعاقب الكافر على تقديره ﷻ عليه الكفر، وإنما سيعاقبه على كونه عصى الرسول بعد أن جاءه الرسول وبلغه خبره ودعوته وقامت عليه الحجة به، فيعذب الله ﷻ الكافر على كُفره بالرسل بعد أن قامت الحجة عليه وجاءته دعوة الرسل.

فأقام الله ﷻ الحجة على خَلْقه ببَعْث الرسل إليهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥] فعلمه السابق ﷻ، وتقديره السابق لا ينافي أنه ﷻ أقام الحجة على خَلقه بإرسال الرسل إليهم.

ثُمَّ خَتَمَ الرِّسالةَ والنَّذَارَةَ والنُّبُوَةَ بمحمَّد نَبيِّه ﷺ، فجَعَلَه آخرَ المرْسَلين، بَشِيراً ونَذِيراً وداعياً إلى الله بإذنِه وسِرَاجاً منيراً.

وأنزَلَ عَليه كتابَه الحكِيمَ، وشَرَحَ به دينَه القَويمَ، وهَدَى به الصِّرَاطَ المستَقيمَ.

ختم الله تعالى الرسالة والنبوة بمحمد ﷺ.

فما الفرق بين النبي والرسول؟

قيل:

النبي: إنسان حر ذكر أوحى الله إليه بشرع ولم يُؤمَر بتبليغه.

والرسول: إنسان حر ذكر أوحى الله إليه بشرع وأُمِر بتبليغه..

وبناءً على هذا قالوا: إن نبينا ﷺ نُبِّئ بـ (اقرأ)، وأُرْسِل بـ (المدثر)، أي لما نزلت عليه الآيات الخمس الأولى من سورة العلق لم يكن مأموراً فيها بالبلاغ، فصار بها نبيًّا ﷺ، ثم نزلت عليه سورة (المدثر) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ١-٢] فكان هذا أمراً له بالبلاغ فصار بها رسولاً ﷺ.

وقيل:

النبي: مَنْ لم ينزل عليه كتاب.

والرسول: مَنْ أُنْزِل عليه كتاب.

وقيل:

النبي: مَنْ شرعه لا ينسخ شَرْع مَنْ قبله.

والرسول: مَنْ شَرْعه ينسخ شَرْع مَنْ قبله.

وقيل:

النبي: مَنْ أُرْسِل إلى قوم موحدين يثبتهم على التوحيد والإيمان.

والرسول: مَنْ أُرْسِل إلى قوم مشركين يدعوهم إلى التوحيد.

وهذا الرأي الأخير هو رأي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

فالأنبياء بُعِثوا إلى قوم موحدين، كمَنْ كان قبل نوح عليه السلام، كان الناس عشرة قرون على التوحيد قبل نوح عليه السلام، ونوح عليه السلام وُصِف في الحديث أنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض.

فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: « **يَجْتَمِعُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي، ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ..** »[١].

فهو أول رسول لأنه أول مَنْ دعا قومًا مشركين إلى التوحيد، ولذلك أكثر مَنْ بُعِث إلى بني إسرائيل كانوا أنبياء لأنهم كانوا في ذلك الوقت موحدين رغم ما يقع

---

[١] أخرجه البخاري ٤٤٧٦، ومسلم ١٩٣.

منهم من عصيان.

وقيل: كل نبي رسول، وكل رسول نبي.

لكن هذا القول قد يُشكِل عليه أن الله ﷻ قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيّٖ﴾[الحج:٥٢].

وهذه الآية يستدل بها الذي يُسوّي بينهما والذي يفرق.

فمن سوى بينهما قال: الله تعالى بيّن أن الرسل والأنبياء كلهم أُرْسِل إليهم، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيّٖ﴾[الحج:٥٢] فهذا معناه أن النبي قد أرسل الله إليه فهو رسول لأنه أرسل الله إليه.

والذي يُفَرّق يقول: الآية فَرّقت بينهما، وهذا يقتضي المغايرة، ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيّٖ﴾[الحج:٥٢] .

واستدلوا بحديث البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ، فَأَنْتَ عَلَى الفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ**» . قَالَ: **فَرَدَّدْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا بَلَغْتُ: اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، قُلْتُ: وَرَسُولِكَ، قَالَ: «لاَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»**[١].

---

[١] أخرجه البخاري ٢٤٧، ومسلم ٢٧١٠.

قالوا: لو كان الرسول بمعنى النبي لأقره.

ولكن الفريق الآخر قال: هذا من باب كون ألفاظ الدعاء تعبدية، وأراد منه النبي ﷺ أن يلفظها كما علّمه إياها.

إذن، فقول الله ﷻ عن النبي محمد ﷺ: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] دليل أن خَتْم النبوة يتضمن خَتْم الرسالة لأن الرسل هم بعض الأنبياء، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ كَمْ وَفَّى عِدَّةُ الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: «**مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا**» [١].

فالحديث فيه أن الأنبياء أكثر من الرسل، وأن الرسل قسم من الأنبياء، وطالما أن نبينا ﷺ خاتم الأنبياء؛ فهو خاتم المرسلين.

قال: (**ختم الرسالة والنذارة والنبوة بمحمد نبيه ﷺ، فجعله آخر المرسلين**)

النِّذارة: هي وظيفة الأنبياء، فالله تعالى بعثهم مبشرين ومنذرين.

قال رسول الله: « **أَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**» [٢].

وهذا لا يعارض نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان لأنه ينزل تابعاً لرسالة محمد ﷺ لا بشرع جديد، وإنما ينزل يحكم بكتاب الله تعالى، وبسُنّة محمد ﷺ، ويكون واحداً من هذه الأُمة.

---

[١] أخرجه أحمد في مسنده ٢٢٢٨٨، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة ٢٦٦٨.

[٢] أخرجه البخاري ٣٥٣٥، ومسلم ٢٢٨٦، وأبو داود ٤٢٥٢.

قال: (**فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً**)،

والبِشارة: هي الوعد لِمَنْ أطاعه بالجنة.

والنِّذارة: هي وعيد مَنْ عصاه بالنار.

قال: (**وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً**) هذه صفات نبينا ﷺ في كتاب الله تعالى.

السراج: هو المصباح، ووَصفه الله تعالى بأنه منير، لأن المصباح لو لم يصفه بأنه منير فالمصباح قد يكون منطفئاً، وقد يكون ضعيف الإضاءة، فلما وصفه الله تعالى بأنه سراج فقَرَن ذلك بقوله: (**منيراً**).

والنور هنا: يعني نور الشرع، ونور الهداية الذي بعث الله تعالى به الرسول ﷺ.

قال: (**وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرح به دينه القويم**) أنزل الله تعالى على نبينا ﷺ كتابه الحكيم (القرآن الكريم) وشرح به دينه القويم.

فالنبي ﷺ فسّر الدين الذي جاء به وهو دين الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[النحل: ٤٤].

(**وهدى به الصراط المستقيم**) فالنبي ﷺ هادٍ.

فكيف يجمع بين ما ورد في بعض الآيات من إثبات الهداية له ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢]، وما ورد في الأخرى كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

والجواب: هذا على حسب اختلاف معنى الهداية.

فالهداية نوعان:

هداية التوفيق والإسعاد؛ فهذه لا يملكها إلا الله ﷻ، وهذه التي قال الله تعالى فيها لنبيّه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[القصص:٥٦]، وورد أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ، فقد كان النبي حريصًا على إسلامه وهدايته.

والتفسير الآخر: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[القصص:٥٦]، أي مَنْ أحببت هدايته وأردت هدايته.

فهداية التوفيق والإسعاد: وهي أن يكون الإنسان عاملاً بما علمه من الحق، مُتَّبعًا له، وأن يكون مصيره الجنة.

والنوع الثاني: هداية التبيين والإرشاد؛ أنه يُرشد الناس إلى الحق، ويبين لهم طريق الحق من طريق الباطل، ويُعلمهم الدين، فهذه الهداية أثبتها الله تعالى لنبيّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[الشورى:٥٢] فالنبي ﷺ يهدي وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

ويوضح هذا أن الله ﷻ قال: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت:١٧] فكيف هدى الله تعالى ثموداً مع أنهم ماتوا كفاراً وهم من أهل النار؟

هداهم الله بمعنى أنه بيّن لهم وأرشدهم وعلمهم طريق الحق من طريق الضلال، فاستحبوا العمى على الهدى.

وأنَّ السَّاعةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها، وأنَّ اللهَ يَبعَثُ مَن يَموتُ، كما بدأَهم يعودون.

انتقل إلى ركن آخر من أركان الإيمان، وهو الإيمان باليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر يشمل الإيمان بكل ما أخبر الله تعالى به في كتابه وأخبر به نبيّه ﷺ في سُنته مما يكون بعد الموت.

قال: (**وأن الساعة آتية لا ريب فيها**)؛

الساعة: اسم من أسماء يوم القيامة، واليوم الآخر له أسماء في كتاب الله، فهو يوم القيامة وهو اليوم الآخر، وهو الساعة، وهو يوم البعث، ويوم التغابن، ويوم التلاقي، ويوم التنادي، والحاقة، والقارعة، والزلزلة، والواقعة، وكل اسم يدل على بعض أوصاف هذا اليوم العظيم.

(**لا ريب فيها**) أي لا شك فيها (**وأن الله يبعث مَنْ يموت كما بدأهم يعودون**) كما خلقهم أول مرة يبعثهم من قبورهم.

وأنَّ اللهَ سبحانه وتعالَى ضاعَفَ لعباده المؤمنين الحسَنات، وصَفَحَ لهم بالتَّوبَة عن كبائرِ السيِّئات، وغَفَرَ لهم الصَّغائِرَ باجْتناب الكبائِر، وجعَلَ مَن لَم يتُبْ مِنَ الكبائر صَائراً إلى مَشيئَته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٨] ومَن عاقَبَه اللهُ بنارِه أخرجه منها بإيمانه، فأدخَلَه به جنَّتَه ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، ويُخرِجُ منها بشفاعَة النَّبيِّ ﷺ مَن شَفَعَ لَه مِن أهلِ الكبائِرِ مِن أمَّتِه.

قال: (**وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات**)؛ الله ﷻ وعد عباده المؤمنين بأن يضاعف لهم الحسنات الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، والله يضاعف لِمَنْ يشاء، يعني وعد الله ﷻ. قال: فله عشر أمثالها، وفي الآية: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٦١]، وقال تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [النمل:٨٩] إلى غير ذلك من النصوص في الكتاب والسُّنة التي تدل على أن الله ﷻ يضاعف الحسنات.

(**وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات**) يعني جعل الله تعالى التوبة سببًا في الصفح- أي العفو والمغفرة- لكبائر السيئات.

لأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾

[النساء:٤٨] يعني أي ذنب دون الشرك فهو قابل للمغفرة، فإذاً الكبائر قابلة للمغفرة.

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:٥٣] هنا قال أهل العلم: آية الزمر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:٥٣] هذه في حق التائبين، يعني مَنْ تاب من ذنب غفر الله تعالى له حتى لو كان الشرك، حتى لو كان مشركًا فتاب وأسلم فإن الله تعالى يغفره.

وأمّا آية سورة النساء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨] فهذه في حق غير التائبين، أو هذه في حق الْمُصِرِّين.

ومعنى **الْمُصِرّ**: الذي مات على الذنب غير تائب منه، الْمُصِر: هو الذي مات على الذنب، لم يتب منه، فظل باقيًا عليه ومات عليه من غير توبة، فهذا هو الْمُصِر.

فالْمُصِرّون- يعني الذين لم يتوبوا- فإن كان ذنبهم شِرْكًا فإن الله تعالى لا يغفره أبداً، وأمّا إن كان ذنبهم غير الشرك حتى لو لم يتوبوا فَهُم تحت مشيئة الله، إن شاء عذبهم وإن شاء عاقبهم.

وأمّا آية الزمر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:٥٣] فهذه في حق التائبين، حتى الشرك يغفره الله تعالى لِمَنْ تاب.

فإذاً مَنْ تاب تابَ الله ﷻ عليه وغفر له ذنبه بالتوبة.

فقال: (**وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وغفر لهم الصغائر باجتناب الكبائر**) يعني اجتناب الكبائر سبب في مغفرة الصغائر.

دليل ذلك: في قوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ

سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[النساء:٣١].

(**نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**) أي نُكَفّر عنكم الصغائر.

فمَنْ اجتنب الكبائر كَفّر الله تعالى عنه الصغائر وغفرها له.

(**وجعل مَنْ لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته**) مَنْ لم يتب من الكبائر ومات مُصِرّاً على الكبيرة لم يتب منها فهو صائر إلى مشيئة الله تعالى.

(**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**) فهذا الذي مات من غير توبة فإن كان ذنبه شِركًا لا يغفره الله، وإن كان دون الشرك فهو تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه.

والنبي ﷺ قال: «**التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»[١]، فالتوبة تمحو ما قبلها حتى لو كان شِرْكًا.

وهنا يشير إلى **تقسيم الذنوب إلى**: كبائر وصغائر.

وهذا التقسيم موجود في كتاب الله تعالى وفي سُنّة رسوله ﷺ، ففي كتاب الله تعالى وَصَف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ [الشورى:٣٧]، وفي سورة النجم: ﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[النجم:٣٢].

فاللمم: هو الصغائر.

فإذاً قسم الله تعالى الذنوب إلى: كبائر وصغائر.

بالنسبة للتفرقة بين الكبائر والصغائر: هناك أقوال لأهل العلم في حد الكبيرة

---

[١] أخرجه ابن ماجه ٤٢٥٠، بسند حسن.

والصغيرة، فأكثر المتقدمين من أهل العلم كانوا يعرفون الكبيرة بالذنوب التي فيها حدود في الدنيا كالزنا والسرقة والقتل وشُرْب الخمر.

وما وُصِف في الكتاب والسّنة بأنه من الكبائر أو من الموبقات.

فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثَلاَثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ - أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ**»[١]

وكالذنوب التي سماها النبي ﷺ الموبقات: يعني المهلكات.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ**»[٢].

ولذلك فبعض المتقدمين من أهل العلم كالإمام ابن جرير الطبري عَدّ الكبائر تسع ذنوب فقط.

والإمام البرديجي أول مَنْ صنّف كتاباً في الكبائر، توفي سنة (٣٠١)، وهو أسبق من الطبري، وعَدّ الكبائر ثلاث عشرة كبيرة

والضياء المقدسي عَدّها ست عشرة كبيرة، ذكر الكبائر الـ (البرديجي) وزاد عليه ثلاثاً.

---

[١] أخرجه البخاري ٢٦٥٤، ومسلم ٨٧.

[٢] أخرجه البخاري ٢٧٦٦، ومسلم ٨٩.

والإمام الذهبي رحمه الله قال: هي سبعون كبيرةً، واستدل بقول ابن عباس ﷺ قال: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع، وألّف كتابه «الكبائر» فعَدّ فيها ستاً وسبعين كبيرة.

فزاد الذهبي ما فيه حد، وما في لعن، وما فيه وعيد خاص في الآخرة، كذنب النميمة.

وتوسع الإمام ابن حجر الهيتمي في موضوع الكبائر، فألّف كتابه «الزواجر عن اقتراف الكبائر» أوصل فيه الكبائر إلى (٤٦٦) كبيرةً، فتوسع توسعا فيه نظر والصواب أن أكثر ما عده كبائر هو من الصغائر.

قال: (**ومَنْ عاقبه بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنته، فَمَنْ يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ويُخْرِج منها بشفاعة النبي ﷺ مَنْ شفع له من أهل الكبائر من أمته**)؛

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[الزلزلة:٧]؛ والذرة: مفرد ذر، وهو وزن أصغر النمل[١].

فمَنْ كان من عصاة المؤمنين أو من أهل الكبائر من المؤمنين، فهو تحت مشيئة الله بالنار إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، فإن لم يغفر له وقَدّر عليه العقوبة في النار بسبب ما اقترف من الكبائر، وليس له حسنات ماحية ولا مصائب مُكَفّرة، فإنه يُعاقَب في النار، ثم يُخرِجه الله تعالى منها لإيمانه، ولو كان قليلا.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَأَهْلُ

[١] تفسير ابن كثير ٨ / ٤٦٨.

النَّارِ النَّارَ»، ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ. فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدِ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَا، أَوِ الحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»[١].

قال: (ويخرج منها بشفاعة النبي ﷺ مَنْ شفع له من أهل الكبائر من أمته)

هنا يثبت شفاعة النبي ﷺ لِمَنْ دخل النار.

وشفاعة النبي ﷺ أقسام، فأولها الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ

---

[١] أخرجه البخاري ٢٢، ومسلم ١٤٨.

مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ،

وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ - أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى -» [١].

ويشفع في فتح الجنة، ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ» [٢].

فهذه هي الشفاعة العظمى الخاصة به وحده، والمقام المحمود الذي وعد الله نبيه، وهو الدعاء المأثور بعد كل أذان، عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: « إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ اشْفَعْ، يَا فُلاَنُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ» [٣].

ويشفع النبي ﷺ في أهل الكبائر من أمته، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: اشْفَعْ لِذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ خَلِيلُ اللهِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ، فَيُؤْتَى مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيُؤتَى عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى

---

[١] أخرجه البخاري ٤٧١٢، ومسلم ١٩٤.

[٢]

[٣] أخرجه البخاري ٤٧١٨.

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأُوتَى، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ، أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ...

ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فِي الرَّابِعَةِ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي، لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[١] .

---

[١] أخرجه البخاري ٧٥١٠، ومسلم ١٩٣.

وأنَّ اللهَ سبحانه قد خَلَقَ الجَنَّةَ فأَعَدَّها دارَ خُلُود لأوليائه، وأكرَمهم فيها بالنَّظر إلَى وَجْهِه الكريم، وهي الَّتي أَهْبَطَ منها آدَمَ نبيَّه وخليفَتَه إلى أَرضِه بِما سبقَ فِي سابِق عِلمِه.

من معتقد أهل السُّنة والجماعة أن الجنة والنار مخلوقتان، ولا فناء لهما، قال تعالى عن الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣] يعني فُرِغ منها وأُعِدَت وانتهت.

والنبي ﷺ يوم الإسراء والمعراج دخل الجنة ورآها بعينه ﷺ، ورأى النار.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَدْرُونَ مَا هَذَا؟**» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**»[١].

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **لَا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتَلَكِ اللهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكِ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا** »[٢].

فالجنة والنار موجودتان مخلوقتان.

(**فأعدها دار خلود لأوليائه**) الجنة دار خلود، فلا فناء لها، باقية لأولياء الله.

وولي الله تعالى: هو المؤمن التقي، كما قال ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا

---

[١] أخرجه مسلم ٢٨٤٤.

[٢] أخرجه ابن ماجه (٢٠١٤)، والترمذي (١١٧٤) بإسناد حسن.

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

[يونس: ٦٢-٦٣].

وجاء وصفهم في الحديث القدسي، بأنهم: يؤدون الفرائض، ويتقربون إلى الله بالنوافل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[١].

وأهل العلم يقولون: الأولياء قسمان المقربون وأصحاب اليمين، وأما الظالم لنفسه فليس من قسم الأولياء.

والعبرة بالخواتيم؛ فقد يكون المؤمن يظلم نفسه في وقت فلا يكون من قسم الأولياء، لكن لو خُتِم له بتوبة واستقامة وكان من أصحاب اليمين أو كان من المقربين فهو من الأولياء.

هل يلزم أن تكون للولي كرامة؟

مذهب أهل السُّنة: أنه لا يلزم أن يكون للولي كرامة، فكثير من خيرة أولياء الله تعالى من صفوة الصحابة وخيار الصحابة لم تُحْفَظ عنهم كرامات من خوارق العادات.

---

[١] أخرجه البخاري ٦٥٠٢.

وقد يحصل خَرْق العادة لبعض السحرة والمشعوذين والفَسَقة والكافرين.

فطريقة أهل السُّنة كما قال الإمام الشافعي رحمه الله؛ قال: (إذا رأيت الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تصدقه حتى تعرض أمره على الكتاب والسُّنة)[١].

فإذا رأيت شخصاً تنخرق له العادة -يطير في الهواء أو يمشي على الماء- فليس معنى هذا أنه ولي، وإنما تعرض أَمْره على الكتاب والسُّنة، فإن كان مستقيماً من المؤمنين الأتقياء، المحافظين على الفرائض، المتقربين بالنوافل؛ فيكون خَرْق العادة له كرامةً من الله تعالى له، لكن إذا وجدته قد انخرقت له العادة وهو إنسان فاسق، تارك للصلاة، يزني أو يسرق، أو ساحر أو كاهن؛ فهذا سحر وشعوذة والجن تُعينه لإضلال الناس.

بدليل أن المسيح الدجال - وهو عدو الله، ومن أئمة الكفر ويدّعي الربوبية- يأمر السماء أن تُمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تُنبت فتنبت، ويسير في الخربة فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ويقتل رجلاً ثم يحييه بأمر الله سبحانه تعالى؛ فيفعل أشياء من العجائب ومع ذلك هو عدو لله تعالى ومن أئمة الكفر.

فليس خَرْق العادة لشخص دليلاً على صلاحه ولا على إيمانه، بل الأمر على العكس الصلاح والإيمان والتقوى هو الذي نستدل به على كون خرق العادة كرامة.

لأن بعض مَنْ انحرف من الصوفية جعلوا انخراق العادة لشخص دليل ولاية

---

[١] راجع «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» لشيخ الإسلام.

وصلاح، رغم ما فيه من فساد وضلال، وفي تراجم بعض أوليائهم أنه كان يزني ويفعل الكبائر، ويأتي البهائم، ويعارض القرآن، ويقولون عنه: سيدي فلان!!

والحقيقة أن انخراق العادة له معناه أنه ساحر ومشعوذ، والجن تعينه ليفتن الناس ويُضلهم، فلا كرامة له.

وإنما أكرم الكرامة أن يكون الإنسان مستقيماً على شرع الله وعلى طاعته.

وقد يُكرم الله تعالى شخصاً ضعيف الإيمان لتثبيته على الإيمان، وتقويته عليه، وقد يكون شخص من خيرة الصالحين ويَكِله الله تعالى إلى إيمانه.

قال: (**وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم**) يذكر معتقد أهل السُّنة أن المؤمنين يرون الله ﷻ في الجنة.

وهذا أعظم نعيم على الإطلاق، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

وقال ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس:٢٦]؛ وفسرها النبي ﷺ قال: **الحسنى**: الجنة، **والزيادة**: النظر إلى وجه الله الكريم.

عَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قَالَ: « **إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، قَالُوا: أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ؟** » **قَالَ: «فَيُكْشَفُ الحِجَابُ» قَالَ: «فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»**[١].

---

[١] أخرجه الترمذي ٣١٠٥، وصححه الألباني.

وكان من دعائه ﷺ سؤال الله أن ينعم عليه برؤيته سبحانه، كان يقول عليه السلام: «**نسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضرّاء مُضرة، ولا فتنة مُضلة**»[١].

وورد في الأحاديث أن أهل الجنة على درجتين:

منهم مَنْ يزورون الله ﷻ كل يوم بكرة وعشيًا، يأذن الله ﷻ لهم في النظر إليه مرتين كل يوم.

وأمّا عامة أهل الجنة فإنهم يرون الله تعالى يوم المزيد الذي هو يوم الجمعة في الجنة، يقال له: يوم المزيد.

عَنْ أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ، قال: أَتَى جِبْرِيلُ بِمِرْآةٍ بَيْضَاءَ فِيهَا وَكْتَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا هَذِهِ؟**» قَالَ: هَذِهِ الْجُمُعَةُ فُضِّلْتَ بِهَا أَنْتَ وَأُمَّتُكَ، فَالنَّاسُ لَكُمْ فِيهَا تَبَعٌ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَلَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، وَفِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا مُؤْمِنٌ يَدْعُو اللهَ تَعَالَى بِخَيْرٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ، وَهُوَ عِنْدَنَا يَوْمُ الْمَزِيدِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا جِبْرِيلُ، مَا يَوْمُ الْمَزِيدِ؟» قَالَ: إِنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْفِرْدَوْسِ وَادِيًا أَفْيَحَ، فِيهِ كُثُبُ مِسْكٍ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ أَنْزَلَ اللهُ مَا شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَحَوْلَهُ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ عَلَيْهَا مَقَاعِدُ النَّبِيِّينَ، وَحَفَّ تِلْكَ الْمَنَابِرَ بِمَنَابِرَ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلَةٍ بِالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ عَلَيْهَا الشُّهَدَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ، فَجَلَسُوا مِنْ وَرَائِهِمْ عَلَى تِلْكَ الْكُثُبِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ: أَنَا رَبُّكُمْ، قَدْ صَدَقْتُكُمْ وَعْدِي، فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ. فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا نَسْأَلُكَ رِضْوَانَكَ، فَيَقُولُ: قَدْ رَضِيتُ عَنْكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مَا تَمَنَّيْتُمْ، وَلَدَيَّ مَزِيدٌ. فَهُمْ يُحِبُّونَ يَوْمَ

---

[١] أخرجه أحمد في مسنده ١٨٣٢٥.

الْجُمُعَةِ لِمَا يُعْطِيهِمْ فِيهِ رَبُّهُمْ مِنَ الْخَيْرِ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي اسْتَوَى فِيهِ رَبُّكُمْ عَلَى الْعَرْشِ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ[١].

ولهذا فُسّر أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق:٣٥] أنه النظر إلى وجه الله الكريم.

قال: (**وهي التي أهبط منها آدم نبيّه وخليفته إلى أرضه بما سبق في سابق علمه**)؛ الجنة التي هي دار الخلود والتي أعدها الله تعالى لعباده المتقين هي نفسها الجنة التي خلق الله تعالى فيها آدم وأسكنه فيها هو وزوجه، وهذا مذهب أهل السُّنة والجماعة.

ويزعم المعتزلة أن الجنة التي أُهْبَط منها آدم هي جنة في الأرض، ويحرفون تفسير الآيات فيزعمون أنها مكان مرتفع في الأرض أو حديقة في الأرض كان يسكنها.

والإشكال عندهم يقولون: كيف أهبطه من الجنة وهي دار خلود، وليس فيها تكليف؟

والجواب: أن مسألة عدم التكليف في الجنة وأنها دار خلود هذا عندما يصير إليها المؤمنون في الآخرة، لكن عندما أسكن الله تعالى آدم فيها كان لها حكم آخر يخصها في ذلك الوقت، ودائمًا الخاص لا يعارض العام، فالنصوص عامة في الجنة تفيد أنها دار جزاء وليست دار عمل وتكليف، وتفيد أن مَنْ دخلها لا يخرج منها.

---

[١] أخرجه الشافعي في مسنده، وصححه ابن القيم والألباني، انظر الصحيحة ١٩٣٣.

والنصوص الخاصة بآدم عليه السلام وقت أن أسكنه الله ﷻ فيها، فهذه لا تُعارِض العام، فنقول: هذا النص العام يُستثنى منه ما يتعلق بآدم عليه السلام.

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم:

فحي على جنات عدن فإنها منازلنا الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

يقول: الجنة هي منازلنا الأولى لأن أبانا كان يسكن فيها، وعندما أُهبطنا منها فنحن مسبيون في الأرض، فوطننا هو الجنة، ونحن أُهبطنا منها بسبب الشيطان.

فالمؤمن إذا عاد إلى الجنة فإنه رجع إلى وطنه؛ قال: (فإنها منازلنا الأولى).

قال: (**وهي التي أهبط منها آدم نبيّه وخليفته**) هنا وصف آدم بأنه خليفة الله ﷻ، وهذه المسألة فيها نقاش بين أهل العلم؛ هل يقال عن آدم أو عن الإنسان عمومـًا إنه خليفة الله؟

فالله ﷻ وصف آدم بأنه خليفة، قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة:٣٠] لكن لم يقل: إنه خليفة الله، وإنما قال: (خليفة)، فالمفسرون قالوا: خليفة أي خَلَف مَنْ كان في الأرض ممَّنْ سكنها قبله، فالأرض سكنها قبله صنف من المخلوقات فأفسدوا فيها، فآدم خَلَفهم، وكذلك بنو آدم يخلفُ بعضهم بعضـًا.

فقالوا: آدم ليست خليفةً لله ﷻ لأن الله ﷻ هو يخلف عباده، كما في الحديث: «**اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في المال والأهل**» فالله ﷻ هو الذي يخلف عباده لأنه هو الباقي بعد عباده ﷻ.

ولذلك بعض أهل العلم يُنكِر أن يوصف آدم بأنه خليفة الله، أو أن يوصف الإنسان بأنه خليفة الله، وإنما نقول: (آدم خليفة في الأرض) وليس خليفة الله، فالله تعالى هو الذي يخلف عباده، وآدم خليفة خَلَف مَنْ كان قبله ممَّنْ سكن الأرض.

الرأي الثاني: أَنَّ وَصْف الإنسان بأنه خليفة الله وَصْف جائز لأنه ورد في حديث المهدي في آخر الزمان فوصفه النبي ﷺ قال: «**خليفة الله المهدي**»[١].

والصواب في هذا الباب أن يقال: إن المضاف أحيانًا يكون من باب إضافة الفاعل إلى المفعول، أو إضافة المفعول إلى الفاعل، والإضافة تفيد التشريف والتكريم لهذا المخلوق.

فالذي أثبت وقال: (آدم خليفة الله تعالى) لا يقصد أن آدم يخلف الله ﷻ، وإنما المقصود: أنه خليفة مستخلف من الله تعالى،فالإضافة تصح ولكن تُفَسّر على أنه مستخلف من الله، فأُضيف إلى الله تعالى بهذا المعنى.

أو أنه خليفةٌ أُضِيف إلى الله تعالى تشريفًا له مثل ما يقال: بيت الله، وناقة الله، ورسول الله؛ فهو إضافة تشريف وتكريم للمخلوق بهذا المعنى.

فآدم أهبطه الله إلى أرضه (**بما سبق في سابق علمه**) بما سبق في علم الله تعالى أن آدم عليه السلام سيأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، وأن هذا سيكون سببًا في إهباطه إلى الأرض.

ولهذا فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى،**

---

[١] أخرجه أحمد في مسنده ٢٢٣٨٧، وضعفه الألباني.

اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ « فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»[١] .

وهنا سؤال: هل يصح الاحتجاج بالقَدَر على المعصية؟

والجواب: أن الاحتجاج بالقدر على المعصية هي طريقة المرجئة، فيرفعون اللوم عن العصاة، وقد فعل المشركون ذلك، والله تعالى ذمّهم بذلك، قالوا ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾[الأنعام:١٤٨] .

وأما احتجاج آدم بالقدر وقول النبي ﷺ: «فحج آدم موسى»، فقد أجاب العلماء بجوابين:

الأول: أن الاحتجاج بالقدر إن كان على معصية تاب منها الإنسان فيجوز الاحتجاج بالقَدَر، لأن المعصية التي تاب منها أصبحت من جنس المصائب وليست من جنس المعايب، والقدر يجوز الاحتجاج به على المصائب لا على المعايب.

فمن ابتلي بفقر أو مرض أو وفاة قريب، فيصح أن يقول: هذا شيء قَدّره الله تعالى، ويحتج بالقدر، بخلاف المعايب من الذنوب والمعاصي فليس له أن يحتج بالقدر على الذنب، فإذا تاب من الذنب انتقل من جنس المعايب إلى جنس المصائب.

والجواب الثاني: أن يقال: إن الاحتجاج بالقَدَر هو صحيح إذا نظرت إلى الذنب من جهة تقدير الله ﷻ، أمّا إذا نظرت إلى الذنب من جهة فِعْل العبد له فهو ملوم عليه.

---

[١] أخرجه البخاري ٣٤٠٩، ومسلم ٢٦٥٢.

وخَلَقَ النَّارَ فأعَدَّها دَارَ خُلُود لِمَن كَفَرَ به، وألْحَدَ في آياتِه وكتُبه ورُسُلِه، وجَعَلَهم مَحجُوبِين عن رُؤيَتِه.

الإلحاد في اللغة: هو الميل.

وفي الشرع: هو الميل عن حق إلى باطل وضلال.

يقال: ألحد في آيات الله تعالى، أي مال بها عما يلزم اعتقاده فيها إلى المعتقد الباطل فيها.

والإلحاد في الكتب هو الميل عن المعتقد الصحيح فيها إلى معتقد باطل.

والإلحاد في الرسل هو الميل عن الإيمان بهم والمعتقد الحق فيهم إلى معتقد باطل فيهم.

وكما سبق، فمعتقد أهل السُّنة ومذهب السلف أن النار قد خلقها الله وأوجدها وفُرِغ منها وأعدها الله دار خلود، وأنها باقية لا فناء لها.

وأن عصاة الموحدين إن عذبهم الله، فإنهم يعذبون ثم يخرجون إلى الجنة، وأما الكفار فهم خالدون فيها أبدا، لا يخرجون ولا يخفف عنهم من عذابها.

وقد دل القرآن على خلودهم، وأبطل أي احتمال غير الخلود :

فاحتمال أن يموتوا فيها، قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[طه:٧٤]؛ فنفى الموت.

وقال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ﴾[فاطر:٣٦].

واحتمال أن يذهب عنهم الألم، فالله تعالى قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾[النساء:٥٦] .

واحتمال أن يخرجوا منها؛ فقال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة:٢٠]

وفي الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [الحج:٢٢]. و(كلما) تفيد التكرار، أي إلى الأبد.

واحتمال أن تخبو وتنطفئ مثلاً، فالله تعالى قال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧].

فكل الاحتمالات أبطلها الله تعالى، فلا يمكن أن يخرجوا، ولا يمكن أن يخف عنهم الألم، ولا يمكن أن تخبو النار، ولا يمكن أن يموتوا، فهُم باقون إلى الأبد، فهي دار خلود لِمَنْ كَفَر به وألحد في آياته وكتبه ورسله.

(**وجعلهم محجوبين عن رؤيته**) حجب الله تعالى أهل النار عن رؤيته ﷻ.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين:١٥] أي ممنوعون من رؤية الله تعالى، وهذه الآية استدل بها الإمام الشافعي على أن المؤمنين يرون الله ﷻ، فقال: (حجب أعداءه فلم يحجب أولياءه).

وأنَّ اللهَ تبارك وتعالى يَجيءُ يَومَ القيامَةِ: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر: ٢٢]؛ **لِعَرْضِ الأُمَمِ وَحِسَابِهَا وعقوبتِها وثَوابِها.**

ويجيء الله ﷻ والملائكة واقفون صفوفًا بين يدي الله ﷻ.

وهذا فيه إثبات صفة المجيء لله ﷻ، على ما يليق بكماله ﷻ.

والأشاعرة ينفون صفة المجيء وصفة الإتيان وصفة النزول، ويقولون: إن هذه الصفات كلها يلزم منها الحركة والانتقال، والله تعالى مُنَزّه عن ذلك .

فيؤولون كل النصوص التي فيها المجيء والإتيان والنزول، ويحرفون الكلم عن مواضعه.

و**طريقة السلف**: أن نثبت الصفة لله تعالى على ما يليق به ﷻ ولا نخوض في كيفيتها، فهو سبحانه يجيء على ما يشاء ﷻ، أي نُفَوّض الكيفية إلى الله ﷻ، ونثبت الصفة لله عز وجل.

(**لعرض الأمم وحسابها وعقوبتها وثوابها**) يجيء الله تعالى لعرض الأمم.

والعرض يأتي بمعانٍ:

فأحيانًا **يأتي العرض بمعنى** الوقوف بين يدي الله ﷻ، أو الوقوف صفوفًا بين يدي الله ﷻ يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]، فيقفون بين يدي الله ﷻ على مرأى من الله ﷻ.

وهذا جاء في قول عمر بن الخطاب ﷺ قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزِنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تُعرضون لا تخفى

منكم خافية».

ويأتي العرض بمعنى عَرْض الأعمال، وعَرْض الأعمال معناه أن الله ﷻ يسأل العبد عن عمله، ويقول له: عملت كذا وعملت كذا، فأما المؤمن فيُقِر بما عمل، ويغفر الله ﷻ له، وأمّا الكافر أو الفاجر فيُنكر عمله ويكذب بين يدي الله ويُنكر ، فيختم الله تعالى على فمه، وتتكلم أعضاؤه وتنطق وتشهد عليه.

قال: (**وحسابها وعقوبتها وثوابها**) يحاسبهم الله ﷻ على ما عملوا من خير وشر وطاعة ومعصية.

والحساب: يشمل السؤال، ويشمل وزن الحسنات والسيئات.

وبناءً على ذلك تحصل العقوبة أو الإثابة، فبعد السؤال ووَزْن الأعمال؛ إما أن يُثاب وإمّا أن يُعاقَب، يثاب بالجنة أو يُعاقَب النار.

وتُوضَعُ الموازِينُ لَوَزْنِ أَعْمَالِ العِبَادِ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: ٨].

ما الذي يُوزَن؟

النصوص تفيد أن الذي يوزَن ثلاثة أشياء:

العامل يُوزَن.

والعَمَل يوزن.

والصحف التي كُتبت فيها الأعمال توزن.

والمؤلف رحمه الله ذكر وزن أعمال العباد فقط.

والأرجح في هذا الباب: هو الجمع بين كل ما ثبت من النصوص، فالصواب: أن كل ذلك يُوزَن، كما ذكر ذلك الإمام ابن كثير رحمه الله.

ودليل وزن العمل:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ** »[١].

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **أَثْقَلُ شَيْءٍ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُسْنُ الْخُلُقِ** »[٢].

---

[١] أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤).

[٢] أخرجه البخاري في الأدب المفرد ٤٦٤.

فالأعمال يجعل الله تعالى لها جِرْمًا، أو جسمًا له ثِقَل في الميزان بقدرته ﷻ، فالله ﷻ يقلب المعنويات حسيات، والحسيات معنويات بقدرته ﷻ، فهو على كل شيء قدير.

كالموت شيء معنوي، ليس جسمًا محسوسًا في الدنيا، لكن الله ﷻ يجعل الموت يوم القيامة في صورة كبش، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ**"[١].

وكذلك الأعمال؛ عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا**». وفيه: « **وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ**»...

وقال في حق الكافر: **وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ:**

---

[١] أخرجه البخاري ٤٧٣٠، ومسلم ٢٨٤٩.

أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ»[١].

وكذلك الصحف توزن كما دل على ذلك حديث البطاقة، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **« إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ ، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ» ، قَالَ: «فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلَا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»**[٢].

وأما وزن العامل، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**».[٣]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ

---

[١] أخرجه أحمد في مسنده ١٨٥٣٤، بإسناد صحيح.

[٢] أخرجه أحمد في مسنده ٦٩٩٤، بإسناد صحيح.

[٣] أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٩١، بإسناد حسن.

السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[الكهف:١٠٥]»[١].

والميزان له كفتان ولسان.

وهل هو ميزان واحد يوزن عليه كل البشر؟ أو كل واحد له ميزان؟

فقيل هذا وقيل هذا، لكن الظاهر: أنها موازين؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الأنبياء:٤٧] أفاد أنها جَمْع.

---

[١] أخرجه البخاري ٤٧٢٩، ومسلم ٢٧٨٥.

ويُؤْتَوْنَ صَحائِفهم بأعمَالِهم: فَمَن أُوتِي كتابَه بيمينه فسوف يُحاسَبُ حِساباً يَسيراً، ومَن أُوتِي كتابَه وراء ظَهْرِه فأولئِك يَصْلَوْنَ سَعيراً.

الصحف هي التي كُتبت فيها أعمال العباد.

فكل إنسان معه ملكان يكتبان أعماله في الصحف، وإذا مات العبد طُويت صحيفته، وفي بعض الآثار: أنها تكون معه في قبره، فإذا بُعِث يوم القيامة نُشِرَت هذه الصحف التي كتبت فيها الملائكة أعماله.

فيؤتون بالصحائف إما باليمين وإما بالشمال؛ (**فَمَنْ أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً، ومَنْ أوتي كتابه وراء ظهره فأولئك يُصْلَون سعيراً**).

وهنا إشكال: وَصَف الله تعالى في بعض الآيات الكريمة مَنْ يُؤتَى كتابه بيمينه ومَنْ أُوتي كتابه بشماله، فالمؤمن الطائع يأخذ كتابه بيمينه من أمامه، والكافر يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره.

فكيف بالمؤمن العاصي الذي سيُعَذّب في النار مُدّة ثم يُخرَج منها، هل يأخذ كتابه بيمينه أو بشماله؟

والجواب: أنه وقع خلاف طويل، وكله اجتهاد من أهل العلم، فكثير من أهل السُّنة قالوا: المؤمن سواء كان طائعًا أو فاسقًا يأخذ كتابه بيمينه، وممَّنْ قال بهذا الإمام الموارديِ، قال: (الفاسق يأخذ كتابه بيمينه، وقيل: يأخذه بشماله).

فذكر الشمال على سبيل التضعيف له.

والإمام السفاريني في شرحه لمنظومته في العقيدة فقال: «يعطى الكافر كتابه بشماله من وراء ظهره بأن تخلع أو يدخلها من صدره أو تلوى، ويعطى المؤمن العاصي كتابه بشماله من أمامه، ويعطى المؤمن الطائع كتابه بيمينه من أمامه»[١].

والإمام ابن حزم قال: (المؤمن الطائع بيمينه من أمامه، وأهل الكبائر الموحدون يأخذون كتابهم بيمينهم وراء ظهورهم) .

هذه بعض الأقوال التي قيلت، والعلم عند الله ﷻ.

[١] لوامع الأنوار البهية ٢ / ١٨٣.

وأنَّ الصِّرَاطَ حَقٌّ، يَجُوزُه العبادُ بِقَدْرِ أعمالِهم، فناجُون مُتفاوِتُون في سُرعَةِ النَّجاةِ عليه مِن نار جَهَنَّم، وقَوْمٌ أَوْبَقَتْهُم فيها أعمالُهم.

الصراط جسر منصوب فوق ظهر جهنم، أحدُّ من السيف وأدق من الشعرة، وهو دَحِض مزلة.

الدحض: هو الزَّلِق.

ومزلة: أي الأقدام تزل وتنزلق من عليه.

والناس يمرون على هذا الصراط، وتكون سرعتهم في النجاة على حسب أعمالهم؛ فمنهم مَنْ يمر كالبرق، ومنهم مَنْ يمر كالريح، ومنهم مَنْ يمر كأجاويد الخيل- الخيل الجيدة السريعة-، ومنهم مَنْ يمر يمشي، ومنهم مَنْ يمر يحبو.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: ... قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الجَسْرُ؟ قَالَ: « **مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ[١] وَكَلَالِيبُ[٢]، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ[٣] لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ[٤]، تَكُونُ بِنَجْدٍ[٥]، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، المُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ**

---

[١] (خطاطيف) جمع خطاف وهو حديدة معوجة يختطف بها الشيء.

[٢] (الكلاليب) فهي جمع كلوب وهو حديدة معطوفة الرأس يعلق عليها اللحم وقيل هي ما يتناول به الحداد الحديد من النار.

[٣] (حسكة) شوكة صلبة. (مفلطحة) عريضة.

[٤] (عقيفاء) منعطفة معوجة .

[٥] (بنجد) مكان مرتفع.

وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ [١] فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا». [٢]

وكذلك معهم أنوار أثناء المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾[التحريم:٨] .

فهذا النور أثناء المرور على الصراط؛ منهم مَنْ يكون نوره كالنخلة، ومنهم مَنْ يكون نوره كالكوكب، ومَنْهم من يكون نوره أمامهم وبأيديهم، وآخرهم مَنْ يكون نوره في إبهام قدمه، يُضيء تارةً وينطفئ أخرى، رغم أنه فوق جهنم إلا أن جهنم مظلمة، روي أنها أُوقد عليها حتى احمرت، ثم أوقد حتى ابيضت، ثم أوقد عليها حتى اسودت فهي مظلمة حالكة.

وقال تعالى عن المنافقين وهم يمرون على الصراط خلف المؤمنين: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحديد: ١٣].

(انْظُرُونَا) يعني انتظرونا، لأن المؤمنين يمرون أولاً ويكون معهم النور، والمنافقون خلفهم ليس معهم نور، فهُم يستضيئون بنور المؤمنين، ثم يُسرع المؤمنون، ويبقى المنافقون في ظلام، فيقولون: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾[الحديد:١٣] يعني لا تُسرعوا المرور، انتظرونا حتى نستضيء بنوركم.

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[الحديد:١٣] وهذا ورد أنه مخادعة الله تعالى

---

[١] (مخدوش) مخموش ممزوق. (مكدوس) مصروع أو مدفوع مطرود.

[٢] أخرجه البخاري ٧٤٣٩.

لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[النساء:١٤٢] فورد في تفسيرها أن الله تعالى يوم القيامة يجعل المنافقين يقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[الحديد:١٣] فيقال لهم: ابحثوا عن النور وراءكم، فيلتفتون وراءهم ويبحثون عن النور وراءهم، ففي هذه اللحظة يُضرَب السور، فيفصل بينهم وبين المؤمنين.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾[الحديد:١٣] وهو جهة المؤمنين.

﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[الحديد:١٣] وهو جهة الكفار.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ﴾[الحديد:١٤] ينادون المؤمنين من وراء السور في الجهة الأخرى من الصراط ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[الحديد:١٤]

قال بعض السلف: هما صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة.

فالصراط المستقيم في الدنيا على قدر سرعة سير العبد عليه بالمسابقة في الخيرات والمسارعة فيها تكون سرعة مروره على الصراط في الآخرة، ومَنْ كان بطيء السير على الصراط المستقيم في الدنيا فيكون بطيء السير في الصراط في الآخرة.

والصراط أيضاً هو معنى قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[مريم: ٧١-٧٢]

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ﴾[مريم:٧١] أي وارد جهنم، لأنه لا سبيل لدخول الجنة إلا بعد المرور على الصراط، فجهنم تكون حائلاً بين الناس وبين دخول الجنة

فهذا هو الورود.

والإيمانُ بِحَوْضِ رسولِ الله ﷺ، تَرِدُهُ أُمَّتُهُ لاَ يَظْمَأُ مَن شَرب مِنه، ويُذَادُ عنه مَنْ بَدَّلَ وغيَّرَ.

أحاديث الحوض متواترة، وردت عن بضعة وخمسين صحابياً.

وتفيد هذه الأحاديث أن كل نبي يوم القيامة له حوض ملآن، يدعو إليه مَنْ عرف من أمته.

والحوض هو: مورد الماء، أو مجتمع الماء.

وأكبر هذه الأحواض يوم القيامة: هو حوض نبينا محمد ﷺ، طوله مسيرة شهر وعرضه مسيرة شهر.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا**»[١].

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ، آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ**

---

[١] أخرجه مسلم ٢٢٩٢.

اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»[١].

«يشخب فيه ميزابان»؛ أي يصب فيه ميزابان من نهر الكوثر في الجنة، والجنة درجات بعضها فوق بعض، ومقام النبي ﷺ في أعلى مقامات الجنة، وللنبي ﷺ نهر في الجنة هو نهر الكوثر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر:١].

وصفة ماء الكوثر: هي نفس صفة الحوض؛ «ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب من المسك» فنهر الكوثر يكون فوق الناس- يعني في درجات الجنة العليا- ويصب من نهر الكوثر ميزابان، يصب منهما الماء فيجتمع في حوض النبي ﷺ.

وقال ﷺ: «**وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي**»[٢] منبر النبي ﷺ سيكون على حوضه.

فيدعو النبي ﷺ مَنْ عرف من أمته، فيدعو ناسًا يظنهم النبي ﷺ من أمته عليهم علامة تدل على أنهم، يظنهم من أجلها من أمته لكنهم بدّلوا بعد النبي ﷺ، فيدعوهم ليشربوا من الحوض فيقال له: إنهم ليسوا من أُمّتك، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول النبي ﷺ: «سُحقًا سحقًا لِمَنْ بَدّل بعدي».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ، فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**» قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**» فَقَالُوا:

---

[١] أخرجه مسلم ٢٣٠٠.

[٢] أخرجه البخاري ١١٩٦، ومسلم ١٣٩١.

كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟**» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: " **فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا** "[١].

فالذين يُذادون عن حوض النبي ﷺ يشمل المرتدين، والمنافقين، والظلمة، وأعوان الظلمة.

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُعِيذُكَ بِاللهِ يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ مِنْ أُمَرَاءَ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلاَ يَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ، وَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ أَوْ لَمْ يَغْشَ وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ**»[٢].

قال: (**ويذاد عنه**) يعني يُطرَد عنه (**مَنْ بَدّل وغيّر**)، فالملائكة يقفون على الحوض ويطردون ويُبعدون مَنْ بَدّل بعد النبي ﷺ.

---

[١] أخرجه مسلم ٢٤٩.

[٢] أخرجه الترمذي ٦١٤، وصححه الألباني.

وأنَّ الإيمانَ قَولٌ باللّسان، وإخلاَصٌ بالقلب، وعَمَلٌ بالجوارِح، يَزيد بزيادَة الأعمال، وينقُصُ بنَقْصِها، فيكون فيها النَّقص وبها الزِّيادة، ولا يَكْمُلُ قَولُ الإيمانِ إلاَّ بالعمل.

ولا قَولٌ وعَمَلٌ إلاَّ بنِيَّة، ولا قولٌ وعَمَلٌ ونِيَّةٌ إلاَّ بمُوَافَقَة السُّنَّة.

يذكر معتقد أهل السُّنة في الإيمان، فالإيمان: قولٌ باللسان، وإخلاص بالقلب، وعملٌ بالجوارح.

والعمل بالجوارح يشمل العمل الظاهر، كالذي يُعمَل باليد والرجل والعين والأذن ونحو ذلك من بدن الإنسان وأعضائه التي يعمل بها ويكتسب بها، فهذا كله داخل في الإيمان.

ومعتقد أهل السُّنة والجماعة: أن الإيمان قول وعمل، بعضهم يقول: قول وعمل فقط، وبعضهم يقول: قول وعمل ونيّة.

وكلها اختلاف في التعبيرات لكن المضمون واحد.

فالذي يقول: قول وعمل؛ فالقول: يشمل قول القلب وقول اللسان، والعمل يشمل عمل القلب، وعمل اللسان، وعمل الجوارح، فهي خمسة أقسام.

القول قسمان:

- قول القلب.
- وقول اللسان.

والعمل ثلاثة:

- عمل القلب.
- وعمل اللسان.
- وعمل الجوارح.

وإن كان كثير من الأئمة يجعل عمل اللسان والجوارح شيئًا واحدًا.

والمقصود بقول القلب: هو التصديق.

والقول يشمل:

- **قول القلب**، وهو الاعتقاد، أو النية، أو التصديق؛ فهذا قول القلب.
- **وقول اللسان**: هو التلفظ بالشهادتين.

وعمل القلب: يشمل العبادات القلبية؛ مثل: محبة الله تعالى، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه.

وعمل اللسان: هو الذِّكْر، والتسبيح، وتلاوة القرآن، وتعليم العلم النافع، والاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ، والأمر بالمعروف، وتعليم العلم، والدعوة إلى الله تعالى.

وعمل الجوارح: يشمل الصلاة، والصيام، والزكاة، والصدقة، والحج، والعمرة، والجهاد، والأمر بالمعروف- إذا كان باليد-.

ومن ضمن العمل أيضـًا: تَرْك المنهيات، أي تَرْك ما نُهي عنه من عمل القلب، كتَرْك الكِبْر والحسد والنفاق، وتَرْك الزنا والسرقة وتَرْك الخمر وترْك القتل.

ومن تمام معتقد السلف الصالح وأهل السُّنة: أن كل ما هو من الإيمان ليس على درجة واحدة.

فهناك درجة من الإيمان مَنْ تركها كَفَر وخرج من الملة.

وهناك درجة مَنْ تركها أَثِم واستحق العقاب.

وهناك درجة مَنْ تركها لا إثم عليه، ولكن يكون أنقص ممَّنْ أتى بها وقام بها.

فالقدر الذي مَنْ تركه كَفَر، يشمل قول القلب وهو التصديق، وقول اللسان وهو التلفظ بالشهادتين، فلا يكون الإنسان مؤمنًا، ناجيًا من الخلود في النار حتى يكون مُصَدّقًا بقلبه ويتلفظ بالشهادتين بلسانه.

وكذلك أصل أعمال القلوب مَنْ تركها كَفَر، بمعنى أنه مَنْ انعدم عنده عمل من أعمال القلوب بالكلية، فهذا كُفْر، فلا بد أن يكون عند كل مؤمن قدر من محبة الله وخشيته ورجائه، فمَنْ وُجِد في قلبه ضد ذلك، كبُغْض الله تعالى أو لرسوله ﷺ، أو في قلبه شيء يدل على انتفاء أعمال القلوب من قلبه بالكلية؛ فهذا يكون كُفْراً.

وكل عمل من أعمال القلوب منه قدر مَنْ تركه كَفَر، وقدر مَنْ تركه فسق وأَثِم، وقدر مَنْ تركه كان أنقص إيمانًا ممَّنْ أتى به.

فمثلاً: محبة الله تعالى؛ منها قدر يُبقي الإنسان على أصل الدين، وأصل الإسلام، ويكون هذا القدر مَنْ تركه كَفَر.

لكن هناك قدر أعلى، هو الذي يجعله يفعل الواجبات ويترك المحرمات، فهذا القدر يكون واجبًا.

وهناك قدر أعلى من المحبة يجعله يفعل المستحبات والسُّنن يزداد به الإيمان.

وكذلك الخوف من الله تعالى؛ لو انعدم في قلب إنسان الخوف من الله، ففي قلبه استهانة بالله تعالى واستهزاء وسُخرية، مما يدل على انتفاء أصل الخشية من قلبه فهذا كُفْر.

ومن في قلبه قدر من الخوف من الله يمنعه من الكفر والردة ولكن لا يحجزه عن فعل المحرمات فمعه خوف يعصمه من الكفر ولا يعصمه من الفسق.

وهناك قدر أعلى من الخوف من الله تعالى وهو الذي يجعله يترك المكروهات، ويترك المشتبهات، فهذا يكون قدراً مستحبـًا من الخوف من الله.

وجنس عمل اللسان والجوارح أيضـًا مَنْ تركه كَفَر، بمعنى: مَنْ كان خاليـًا تمامـًا لم يسجد لله سجدة، ولا سبّح تسبيحة، ولا فعل أي طاعة تَقَرّبـًا إلى الله تعالى فهذا انتفى عنه جنس عمل الجوارح، فلهذا يقولون: جنس عمل الجوارح مَنْ تركه كَفَر، بمعنى أنه لا بد أن يعمل بعض الطاعات يتقرب بها إلى الله بجوارحه، فإذا انتفى عمل الجوارح بالكلية فيكون هذا كُفْراً.

لكن من عَمَل الجوارح ما تَرْكه إثم ومعصية، ومن عَمَل الجوارح ما تَرْكه في درجة المكروه.

فهذا معتقد السلف في الإيمان، وللتفصيل راجع شرح منظومة الأسماء والأحكام.

قال: **يَزيد بزيادَة الأعمالِ، ويَنقُصُ بنَقْصِها، فيكون فيها النَّقصُ وبها الزِّيادَة.**

الزيادة مذكورة كثيراً في كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[الأنفال:٢]، ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾[الفتح:٤].

وأما النقصان: فلم يأتِ في القرآن، لكن هو من لوازم الزيادة لأن أي شيء زاد فمعناه أنه قبل الزيادة كان ناقصاً، فإثبات أحد الضدين يلزم منه وجود الضد الآخر.

والإيمان ينقص بالمعصية ويزيد بالطاعة.

قال: (**ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول وعمل إلا بنيّة**) لا يكمل القول والعمل إلا بالنيّة وهي اعتقاد القلب.

(**ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السُّنة**) وهي اتباع السُّنة: فكما أنه نشهد أن لا إله إلا الله كذلك شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ هي اتباع النبي ﷺ، فالإيمان لا يكمل إلا باتباع سُنة النبي ﷺ وموافقتها.

وأنَّه لا يَكفُرُ أَحدٌ بذَنب مِنْ أهْل القِبْلَة.

الذنوب لا يكفر بها أحد من أهل القِبلة، ممَّنْ يستقبل قبلتنا من المسلمين.

وقد أطلق الكلام، لكن بيّن أهل العلم **أنه يحتاج إلى تقييدين:**

التقييد الأول: أن الذنب هنا أي بذنب دون الشرك، لأن الشرك هو ذنب من الذنوب، فالمقصود هنا: لا يكفر بذنب دون الشرك.

والقيد الثاني: ما لم يستحله.

فيقال: (لا يكفر أحد بذنب من أهل القِبلة ما لم يكن الذنب شركًا، أو كان دون الشرك فاستحله).

فإذا كان الذنب شركًا فهذا يكفر به، فمَنْ كان يسجد لغير الله، أو يدعو غير الله، أو يستغيث بغير الله، أو يذبح لغير الله،أو يسب النبي ﷺ، أو يُهين المصحف. فهذه كلها ذنوب وهي كُفر في ذاتها.

وكذلك من استحل ما حرم الله، كمن استحل الزنا أو الكذب وإن لم يفعله، فهذا كفر بالله.

مسألة الحكم على المعين:

بعض الأعمال تكون كُفراً، لكن قد يكون الشخص الذي فعل شيئًا من المكفرات يجهل الحكم، ولذلك فتنزيل الحُكم على المعين يحتاج إلى إقامة الحجة عليه والتبيين له، كما فصلنا ذلك في شرح منظومة الأسماء.

لكن نقول على سبيل العموم: مَنْ فَعَل كذا فقد كَفَر.

مسألة ترك الصلاة:

ذكرنا أن جنس العمل لا بد أن يأتي به وإلا كَفَر، فنذكر مسألة الصلاة، في مذهب الإمام أحمد: الصلاة لها حكم خاص، فليس فقط جنس العمل، بل هناك عملٌ مخصوص وهو الصلاة، مَنْ تركها كَفَر حتى ولو تكاسلاً في مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

فعندما نتكلم عما يكون تَرْكه كُفْراً فبالإضافة إلى تَرْك جنس العمل هناك عمل مخصوص وهو الصلاة مَنْ تركه كفر حتى لو أتى ببقية جنس الأعمال، فقد لا يكون الإنسان تاركـًا لجنس العمل فهو يصوم ويتصدق ويحج، لكنه لا يصلي، فهذا يكون كافراً في مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

ولكن عند الجمهور فتَرْك الصلاة كبيرة من كبائر الذنوب ما لم يستحل تَرْك الصلاة.

وهناك ضوابط في مسألة التكفير بترْك الصلاة في مذهب الإمام أحمد، فليس معناه أن مَنْ مات وهو لا يصلي أنه يُعامَل معاملة الكفار.

فقد ذكر الإمام ابن قدامة رحمه الله: أن العمل جرى أنه مَنْ مات وهو تارك للصلاة يُعامَل معاملة المسلمين.

ومسألة تكفير تارك الصلاة تحتاج إلى رَفْعه إلى القاضي، والقاضي يستتيبه يقول له: صلّ وإلا قتلناك، فإن أَصَرّ على تَرْك الصلاة يستتيبه ثلاثة أيام فإذا أَبَى أن يُصلي فيُقتَل رِدّةً في مذهب الإمام أحمد، ويُقتَل حدّاً عند مالك والشافعي.

فهذا الذي فيه الكلام في إقامة حُكم الكافر عليه، لكن قبل أن يُرْفَع أمره إلى

القاضي ويستتيبه فهو يُعامَل معاملة المسلمين ولو مات دُفِن مع المسلمين.

وإن كان بعض مشايخنا من المعاصرين يُشَدّدون يقولون: إذا مات وهو لا يُصلي لا يُغَسَّل ولا يُكَفّن، لكن في الحقيقة: هذا ليس عليه العمل، ولا هو مذهب أحمد رحمه الله.

وأنَّ الشُّهداءَ أحياءٌ عند ربِّهم يُرْزَقونَ، وأرْواحُ أهْلِ السَّعادَةِ باقِيةٌ ناعِمةٌ إلى يوم يُبْعَثون، وأرواحُ أهلِ الشَّقاوَةِ مُعَذَّبةٌ إلى يوم الدِّين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[البقرة:١٥٤].

قال: (**وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يُبعثون**).

عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: « هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا» [١].

---

[١] أخرجه مسلم ١٨٨٧.

عن كَعْب بْن مَالِكٍ، كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « **إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ**» [١].

نسمة المؤمن أي روحه.

قال ابن كثير: «ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضا وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن، تشريفا لهم وتكريما وتعظيما» [٢].

أي أن أرواح المؤمنين كلها في الجنة، وتطير في الجنة،وهذا الثواب ليس خاصاً بالشهداء، وإن كانوا يتميزون بمزايا في ثوابهم، لكن عموم المؤمنين أرواحهم تتنعم في الجنة في مُدة البرزخ، فتكون الأجساد في القبور والأرواح تتنعم في الجنة.

والمؤمن وهو في قبره يُفسَح له في قبره مَدّ البصر ويُفتَح له باب إلى الجنة.

وقال الله تعالى عن فرعون: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾[غافر:٤٦] فهُم يُعَذّبون غُدواً وعشياً في فترة البرزخ، لأنه في الآخرة العذاب ليس في الغدو والعشي فقط، بل العذاب متصل دائم.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا**» ، ثُمَّ قَالَ: « **إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ**

---

[١] أخرجه أحمد ١٥٧٧٧.

[٢] تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٧.

الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ» . قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ» قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى» . قَالَ: « فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ. قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ» . قَالَ: « وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى

أَهْلِي، وَمَالِي» . قَالَ: « وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: « فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ «، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا» . ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] « فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»[١].

---

[١] أخرجه أحمد ١٨٥٣٤، وقد سبق.

وأنَّ المؤمنين يُفْتَنُونَ في قُبُورِهم ويُسْأَلُون، ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾[إبراهيم: ٢٧].

(**يُفْتَنون**) يعني يُختبرون ويُمتحنون.

والقول الثابت: أي بكلمة (لا إله إلا الله).

وهذه الآية الكريمة فُسّرت بتفسيرين:

بعض المفسرين يقول: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي قبل الموت يُثَبّتهم الله على كلمة (لا إله إلا الله) ويموتون عليها، ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾أي في القبر عند سؤال الملكين.

والتفسير الآخر: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي في القبر؛ لأن القبر- وإن كان الإنسان قد مات- لكن الدنيا لا تزال قائمة طالما لم تقم الساعة، ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي بعد البعث، فيُبعَث على (لا إله إلا الله) ويكون مع أهل هذه الكلمة.

فتثبيت الله تعالى يكون للمؤمن عند احتضاره فيموت على كلمة التوحيد، ويُثبته الله تعالى في القبر عند سؤال الملكين، ويثبته الله تعالى في الآخرة عند الصراط والحساب والميزان وغير ذلك من أحوال الآخرة إلى أن يدخل الجنة.

وأنَّ على العباد حَفَظَةً يكتبُون أعمالَهم، ولا يَسقُطُ شيْءٌ مِن ذلك عَن عِلمِ ربِّهِم، وأنَّ مَلَكَ الموتِ يَقْبِضُ الأرواحَ بإذن ربِّه.

على العباد حَفَظَة، وهم الكرام الكاتبون، فكل إنسان معه ملكان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٧-١٨].

فكل إنسان معه ملكان يتلقيان عنه العمل والقول، ويكتبان الأعمال؛ عن اليمين يكتب الحسنات، وعن الشمال يكتب السيئات.

(**ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم**) ليست الكتابة لكون الله ﷻ يخفى عليه علم ذلك، فهو ﷻ يعلم أعمال العباد وأقوالهم ويراهم ويسمعهم ﷻ، ولكن زيادة في إقامة الحُجة عليهم جعل الذي يقولونه ويعملونه مكتوبًا مُسَجّلاً عليه مع كونه ﷻ يعلم بذلك.

ويدل على هذا قوله ﷻ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠] ، فالله ﷻ يسمع السر والنجوى، ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠] أي الملائكة الكرام الكاتبون.

قال: (**وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه**) الإيمان بالملائكة من أركان الإيمان، والملائكة هم صنف من المخلوقات، هم جُند لله ﷻ، خلقهم الله

تعالى من النور، ومنهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت.

فنؤمن بالملائكة إجمالاً، ونؤمن تفصيلاً بمَنْ ذُكِر من الملائكة:

فمنهم: منكر ونكير اللذان يسألان العبد في القبر.

ومنهم: الكرام الكاتبون الذين يكتبون الأعمال.

ومنهم: جبريل عليه السلام وهو سيد الملائكة والمقدّم فيهم وإمامهم وهو المكلّف بالوحي، والمكلّف بتعذيب الأمم الْمُكَذِّبه.

وميكائيل الموَكّل بالقطر.

وإسرافيل الموَكّل بالنفخ في الصور.

ومن الملائكة: ملك الموت، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١]، وقال سبحانه: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام:٦١].

ومنهم: مالك خازن النار، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[البقرة:١٠٢] الملكان اللذان كلّفهما الله تعالى بتعليم السحر بأمر الله تعالى.

وغير ذلك ممَّنْ ذكر الله ﷻ في كتابه من الملائكة، أو ذكره رسوله ﷺ.

وأنَّ خيْرَ القرون القرنُ الَّذين رَأَوا رسولَ الله ﷺ وآمَنوا به، ثمَّ الَّذين يَلُونَهم ثمَّ الَّذين يَلونَهم.

عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم**»[١].

وهذا الحديث فُسّر بتفسيرين:

التفسير الأول: أن القرن هم الجيل من الناس؛ أي أن جيل الصحابة الذين رأوا النبي ﷺ هم القرن الأول، والجيل الثاني: هم جيل التابعين الذين رأوا الصحابة، والجيل الثالث: هو مَنْ رأى تابعيًا.

فيشمل الصحابة والتابعين وأتباع التابعين؛ فهؤلاء القرون الثلاثة المفضلة.

والتفسير الثاني: أن القرن مائة سنة، لأن القرن يأتي في اللغة بمعنى مائة سنة، فيكون المقصود: إلى نهاية سنة ثلاثمائة من الهجرة.

---

[١] أخرجه البخاري ٢٦٥٢، ومسلم ٢٥٣٣.

وَأَفْضَلُ الصحابة: الخُلَفاءُ الرَّاشدون المَهْديُّون، أبو بكر ثمَّ عُمر ثمَّ عُثمان ثمَّ عليٌّ رضي الله عنهم أجمعين.

وأن لاَ يُذكَرَ أَحَدٌ مِن صحابَةِ الرَّسول ﷺ إلاَّ بأَحْسَن ذِكْرٍ، والإمساك عمَّا شَجَرَ بَينهم، وأنَّهم أَحَقُّ النَّاس، أن يُلْتَمَسَ لَهم أَحسَن المخارج، ويُظَنَّ بهم أحسن المذاهب.

مما يجب الإيمان به أن أفضل الصحابة هم الخلفاء الراشدون، وترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

(**والإمساك عما شجر بينهم**) أي ما وقع من خلاف بينهم وقتال رضي الله عنهم وأرضاهم، فالواجب هو الإمساك عن ما شجر بينهم؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم أثنى الله تعالى عليهم في كتابه الكريم، وأخبر أنه رضي عنهم وأرضاهم، وأخبر أنه تاب عليهم، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[التوبة:١١٧].

وقال ﷻ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[الحديد:١٠] أي سواء الذين أسلموا قبل الفتح أو الذين أسلموا بعد الفتح كلهم وعدهم الله تعالى الحسنى- أي الجنة-.

وعنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلاَ نَصِيفَهُ**»[١].

---

[١] أخرجه البخاري ٣٦٧٣، ومسلم ٢٥٤٠.

فلو أن إنساناً تصدق بمثل جبل أُحُد من الذهب لا يبلغ ثواب صحابي تصدق بِمُدّ -أي بملء الكفين- من طعام، أو بنصيف الْمُد -أي ملء كَف واحد من الطعام- تصدق به صحابي.

فالصحابة لهم فضل عظيم، واصطفاهم الله تعالى واختارهم لصحبة نبيّه ﷺ، وما شجر بينهم يجب الإمساك عنه، ولا يُساء إلى أحد بسببه، فهُم في هذا ما بين مصيب له أجران، ومخطئ له أجر واحد، فكلهم قصدوا الخير وأرادوا نُصرة الدين مخلصين لله تعالى.

(**وأنهم أحق الناس أن يُلتمَس لهم أحسنُ المخارج ويُظنّ بهم أحسنُ المذاهب**) أُمرنا أن نُحسن الظن بالمؤمنين، ونجتنب سوء الظن؛ وهذا في عموم المؤمنين، والصحابة رضي الله عنهم هم أَوْلى الناس وأحق الناس أن نُحسن بهم الظن، وأن نلتمس لهم أحسن المخارج، ونظم بهم أحسن الظنون.

والطَّاعَةُ لأئمَّة المسلمين مِن وُلاَةِ أمورِهم وعُلمائهم، واتِّبَاعُ السَّلَفِ الصَّالِح واقتفاءُ آثارِهم، والاستغفارُ لهم.

من طريقة أهل السُّنة أنهم يطيعون أئمة المسلمين.

وأئمة المسلمين قسمان: ولاة الأمر، والعلماء.

لأن الله تعالى قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء:٥٩]؛ ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ فُسّرت بالأمراء والعلماء.

قال: (**واتباع السلف الصالح واقتفاء آثارهم**)؛ السلف الصالح قيل: هم الصحابة، وقيل: هم الصحابة والتابعون، وقيل: هم أهل القرون الثلاثة؛ فهذه كلها أقوال قيلت في السلف الصالح.

وبعض العلماء يُوَسّع فيقول: السلف الصالح كل مَنْ سبقك على الخير من علماء المسلمين وصالحيهم.

(**والاستغفار لهم**) لأن الله ﷻ في سورة الحشر ذكر المهاجرين، وبعدها ذكر الأنصار فقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩ ﴾ [الحشر: ٨-٩].

وبعد أن ذكر المهاجرين والأنصار قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[الحشر:١٠].

فالمؤمنون ينقسمون إلى هذه الأقسام الثلاثة: فلا يوجد مؤمن إلا إمّا مهاجري، وإمّا أنصاري، وإمّا جاء من بعدهم يستغفر لهم وليس في قلبه غِل على أحد منهم.

وهذا يدل على أن الرافضة ليسوا من المؤمنين، لأن في قلوبهم غل على الصحابة ولا يستغفرون للصحابة، ويسبونهم ويُكفرّونهم.

والاستغفار لعموم المؤمنين مأمور به في كتاب الله تعالى، قال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[محمد:١٩].

وقال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[نوح:٢٨][نوح:٢٨].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾[إبراهيم:٤١].

وتَركُ المراءِ والجِدَالِ في الدِّين، وتَركُ ما أَحْدَثَهُ المُحْدِثُونَ.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وأزواجِه وذريته، وسلَّم تَسليماً كثيراً.

ما الفرق بين المراء والجدال؟

المراء: هو الجدال في الحق بعد ظهوره اعتراضاً عليه، فهو أخص من الجدال.

والجدال: يكون ابتداءً قبل ظهور الحق، ويكون انتهاءً بعد ظهوره دفاعاً عن الباطل، واعتراضاً على الحق.

وقيل: هما بمعنى واحد.

والجدال المنهي عنه هو الذي يكون على سبيل الاعتراض على أمر الله تعالى، أو الذي يكون غرضه الانتصار للنفس أو احتقار الخصم والتعالي عليه.

لكن الجدال الذي يُراد به الاهتداء للحق ومعرفته واتباعه، أو يُراد به دعوة الخلق إلى الله تعالى، فليس مذموماً.

كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾[العنكبوت:٤٦] فأذِن في جدال أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

وجادل عبد الله بن عباس ﷺ الخوارج فتاب ثلثا الخوارج، ورجعوا إلى الحق، وبقي ثلثهم قاتلوا علياً يوم النهروان.

فالصحابة جادلوا أهل البدع، وجادلوا أهل الكتاب.

وإنما المذموم: هو الجدال الذي يُراد به التعالي على الخلق أو الانتصار للنفس، أو الذي فيه دفاع عن باطل، أو الاعتراض على الحق، أو على حكمة الله تعالى في تشريعه.

قال: (**وتَرْك كلِ ما أحدثه المحدثون**) أي تَرْك البدعة ، فكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، .

(**وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليماً كثيراً**).

وبهذا ينتهي هذا الكتاب العظيم النافع، الذي هو من أوائل كتب العقيدة لإمام المالكية في زمانه، الإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله تعالى.

المحتويات

إسناد الشارح إلى مقدمة ابن أبي زيد ٣
ترجمة الإمام العلامة ابن أبي زيد القيرواني ٤
متن مقدمة رسالة الإمام أبي محمد ابن زيد القيرواني ٦
نظم المقدمة للشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي ١٢
شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني ١٩
معنى الحمد ١٩
معنى التيسير لليسرى ٢٤
سبب تأليف المقدمة ٢٧
معنى الشهادة ٤٣
باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات ٤٣
أولياء الله ٤٥
كرسي الله ٥٠
علو الله ٥٣
قرب الله من عباده ٥٦
استوء الله على العرش ٥٨
أسماء الله ٦٢

الإلحاد في أسماء الله تعالى ٦٦
صفة الكلام لله ٦٨
الإيمان بالقدر ٧١
مراتب القدر ٧٥
مرتبة المشيئة ٧٧
إرادة الله ٧٨
تقسيم الذنوب إلى: كبائر وصغائر ٩٤
الجنة والنار ١٠٠
صفة المجيء لله ١١٢
الميزان ١١٤
الصحف ١١٨
الصراط ١٢٠
الحوض ١٢٣
معتقد أهل السُّنة في الإيمان ١٢٦
مسألة تكفير المعين ١٣١
أرواح الشهداء ١٣٤
فتنة القبر ١٣٩

الكرام الكاتبون ١٤٠
خير القرون ١٤٢
أفضل الصحابة ١٤٣
الفرق بين المراء والجدال ١٤٧